

الحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ

وموقف العبد عندهما

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . وَمَا أَصَابَكَ
مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ
رَسُولًا . وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) .

جود تفسيرها ، واستنباط دقيق معانيها

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وما توفيقى إلا بالله

قال الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تیمیة الحرانی . تغمده الله تعالى برحمته . الحمد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

في قوله تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وبعض ما تضمنته من الحكم العظيمة .
هذه الآية : ذكرها الله في سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى (٤ : ٧١ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . فانفروا ثباتاً ، أو انفروا جميعاً - الآيات) إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول ، والتحاكم إلى الله وإلى الرسول . ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول . وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .
فكانت تلك الآيات : تبييناً للإيمان بالله وبالرسول . ولهذا قال فيها (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يُحكّموك فيما شَجَرَ بينهم . ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت . ويسلموا تسليماً) .
وهذا جهاد عما جاء به الرسول . وقد قال تعالى (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) وقال

تعالى (٩ : ٢٤ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله . فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لايهدي القوم الفاسقين) وقال (٩ : ١٩ - ٢١ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجهاد في سبيل الله ؟ لا يستوتون عند الله . والله لايهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون . يُبَشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ - الآية) .

وقال تعالى (٦١ : ١٠ - ١٤ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن . ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين . يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فأمّنت طائفة من بني إسرائيل ، وكفرت طائفة . فأيدّنا الذين آمنوا على عدوهم . فأصبحوا ظاهرين) .

وذكر بعد آيات الجهاد (٤ : ١٠٥ - ١٢٥) إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما أراه الله ، ونهيّه عن ضد ذلك . وذكره فضل الله عليه ورحمته في حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له ، وتعليمه ما لم يكن يعلم . وذم من شاقّ الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره وأن الله لا يغفره . ولكن يغفر مادونه لمن يشاء - إلى أن يبين أن أحسن الأديان : دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا . بشرط أن تكون عبادته بفعل

الحسنات التي شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم ، الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا (٤ : ١٢٥) واتخذ الله إبراهيم خليلا .

فكان في الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها : اتباع التوحيد ، وملة إبراهيم . وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسن رسله من الحسنات : وقد ذكر تعالى في ضمن آيات الجهاد : ذم من يخاف العدو ، ويطلب الحياة . وبين أن ترك الجهاد : لا يدفع عنهم الموت . بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا في بروج مشيدة . فلا ينالون بترك الجهاد منفعة . بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى (٤ : ٧٧) ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُوا أَيَدِيَكُمْ ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية . وقالوا : ربنا ، لِمَ كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتىلا) .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون . وقيل : نافقوا لما كتب عليهم القتال . وقيل : بل حصل منهم جُبْنٌ وفَشَلٌ . فكان في قلوبهم مرض . كما قال تعالى (٤٧ : ٢٠ ، ٢١) فإذا أنزلت سورة مُحْكَمَةٌ ، وذُكِرَ فيها القتال : رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الْمَغْشَى عليه من الموت . فأولى لهم . طاعةٌ وقول معروف - الآية) وقال تعالى (٣٣ : ١٢) إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء . ولكل من كان بهذه الحال .

ثم قال (٤ : ٧٨) أينما تكونوا يَذْرِكُكُمْ الموت ولو كنتم في بروج مُشَيَّدَةٍ . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كُلُّ من عند الله . فما هؤلاء القوم لا يكادون يققهون حديثا ؟) .

فالضمير في قوله « وإن تصبهم » يعود إلى من ذكر . وهم « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر . كما في مواضع كثيرة .
وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود . وقيل : كانوا منافقين . وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعم كل من كان كذلك . ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأمر بالجهاد : أولى .
ثم إذا تناول الذم هؤلاء : فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى والذي عليه عامة المفسرين : أن « الحسنه » و « السيئه » يراد بهما النعم والمصائب . ليس المراد : مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

ولفظ « الحسنات » و « السيئات » في كتاب الله : يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين (٣ : ١٢٠) إن تمسككم حسنة تسوهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وقال تعالى (٩ : ٥٠) إن تصبك حسنة تسوهم . وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) وقال تعالى (٧ : ١٦٧) وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (٤٢ : ٤٨) وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها . وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ، فإن الإنسان كفور) وقال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى ومن معه (٧ : ١٣٠) فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يطبروا بموسى ومن معه) ذكر هذا بعد قوله (٧ : ١٢٩) ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) .

وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها : ففي مثل قوله تعالى (٢٨ : ٨٤) من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وقوله تعالى (١١٥ : ١١) إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين) وقوله تعالى

(٢٥ : ٧٠ فأولئك يُبدّل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيمًا) .
وهنا قال (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك)
ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت . كما قال (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة
فما كسبت أيديكم) وقال تعالى (٥ : ٥٢ فاعلم أنما يريد الله : أن يصيبهم ببعض
ذنوبهم) وقال تعالى (٩ : ٥٣ قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟
ونحن نترصد بكم . أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال تعالى
(١٣ : ٣٣ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعةً أو تحلّ قرياً من دارهم)
وقال تعالى (٥ : ١٠٩ فأصابتكم مصيبة الموت) وقال تعالى (٢ : ١٥٦ وبشر
الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون) .

فهذا كان قوله « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما يصيب
الإنسان ، ويأتيه من النعم التي تسره ، ومن المصائب التي تسوءه .
فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله » قال : هذه في
السراء « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه في الضراء .
وقال السدي « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم
وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان « قالوا : هذه من عند
الله . وإن تصبهم سيئة قالوا » - والسيئة : الضرر في أموالهم ، تشأماً بمحمد -
« قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء .
فأنزل الله « قل كل من عند الله » الحسنة والسيئة « فما هؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثاً ؟ » قال : القرآن .

وقال الوالي عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : ما فتح الله
عليك يوم بدر . وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالي أيضاً عن ابن عباس « من حسنة » قل : ما أصاب من الغنيمة

والفتح فمن الله . قال « والسيئة » ما أصابه يوم أحد . إذ شُجَّ في وجهه ، وكسرت رباعيته .

وقال : أما « الحسنه » فأنعم الله بها عليك . وأما « السيئة » فابتلاك الله بها . وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك . وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح « فمن نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدرت بها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره . وروى أيضاً عن مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) ؟ أى من نفسك . والله ما وكلوا إلى القدر . وقد أمرُوا به . وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس « إن تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجذب والبلاء . وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنه النعمة . والسيئة البلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن « الحسنه » ما فتح الله عليهم يوم بدر . و « السيئة » ما أصابهم يوم أحد . قال : رواه ابن أبي طلحة - وهو الوالجي - عن ابن عباس . قال : والثاني « الحسنه » الطاعة . و « السيئة » المعصية . قاله أبو العالية . والثالث « الحسنه » النعمة . و « السيئة » البلية . قاله ابن منبه . قال : وعن أبي العالية نحوه . وهو أصح .

قلت : هذا هو القول المعروف بالإسناد عن أبي العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذى يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبي جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده . ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد . وكثير منها ضعيف . بل كذب . لا يثبت عن نقل عنه . وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً . كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعاً . ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، باعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى حقه من الله أصابته . وما يقع منه من المعصية : هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة . وإذا كان الجزاء من نفسه ، فالعمل الذى أوجب الجزاء : أولى أن يكون من نفسه . فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه . مع أن الجميع مقدر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدرتها عليك » .

فصل

والمعصية الثانية : قد تكون عقوبة الأولى . فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبى صلى الله عليه وسلم - فى الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق . فإن الصدق يهذى إلى البر . والبر يهذى إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يُكْتَبَ ع الله صدوقاً . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهذى إلى الفجور ،

والفجور يهذى إلى النار . ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنه الثانيه : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئه الثانيه : قد تكون من عقوبه الأولى . قال تعالى (٤ : ٦٦ - ٦٨) ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً) وقال تعالى (٢٩ : ٦٩) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا) وقال تعالى (٤٧ : ٤ - ٦) والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى (٣٠ : ١٠) ثم كان عاقبة الذين أساءوا : الشؤم) وقال تعالى (٥ : ١٦) كتاب مبين يهذى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام) وقال تعالى (٥٧ : ٢٨) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . ويجعل لكم نوراً تمشون به . ويغفر لكم) وقال تعالى (٧ : ١٥٤) وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى (٣ : ١٣٨) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (٤١ : ٤٤) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر . وهو عليهم عى) وقال تعالى (٧ : ٢٠١) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدّونهم في النى . ثم لا يقصرون) وقال تعالى (١٢ : ٢٤) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) وقال تعالى (١٢ : ٢٢) ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزي المحسنين) وقال تعالى (٢٨ : ١٤) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقال تعالى (٤٧ : ١ - ٣) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم . وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق

من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وقال تعالى (٣٣ : ٧٠ ، ٧١ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (٢٤ : ٥٤ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ماحل وعليكم ما حلتكم . وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين) قال أبو عثمان النيسابورى : من أَمَرَ السنة على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالحكمة . ومن أَمَرَ الهوى على نفسه - قولاً وفعلاً - نطق بالبدعة . لأن الله تعالى يقول « وإن تطيعوه تهتدوا » .

قلت : وقد قال فى آخر السورة (٦٣ : ٢٤) فليحذر الذين يخالفون عن أمره : أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم) .
وقال تعالى (٦ : ١٠٩ ، ١٠٠ وما يُشعِرُكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (٣ : ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم) وقال تعالى (٦١ : ٥ - ٧ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوننى ؟ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين - إلى قوله - ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الإسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال تعالى (٢ : ٨٨ وقالوا : قلوبنا غُلْفٌ . بل لنهيم الله بكفرهم . فقليلًا ما يؤمنون) وقال تعالى أيضاً (٤ : ١٥٥ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ . بل طبع الله عليها بكفرهم . فلا يؤمنون إلا قليلاً) وقال تعالى (٢ : ٢٥٨ فَبُهِتَ الذى كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال تعالى (٩ : ٢٥ ، ٢٦ ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً . وضائق عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . وعذب الذين كفروا) وقال تعالى فى النوعين (٨ : ١٢ ، ١٣ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم . فثبتوا للذين آمنوا . سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا

فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله (وقال تعالى (٣ : ١٥١ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . وماؤام النار . وبئس مثوى الظالمين) وقال تعالى (٥٩ : ٢ - ٤ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظنتم أن يخرجوا . وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب . يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليكم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) وقال تعالى (٣ : ١١١ ، ١١٢ لن يضرركم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار . ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس . وباءوا بغضب من الله . وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وقال تعالى (٥ : ٨٠ ، ٨١ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم . وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيراً منهم فاسقون) وقال تعالى (٥ : ٨٢ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . وأنهم لا يستكبرون) وقال تعالى (٤٧ : ٢٢ - ٢٦ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله . فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، من بعد ما تبين لهم الهدى : الشيطان سؤل لهم ، وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم) وقال تعالى (٩ : ٧٥ - ٧٧ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنسكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم

معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعده و بما كانوا يكذبون) وقال تعالى (٩ : ٨٣ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج . قل : لن تخرجوا معي أبداً . ولن تقاتلوا معي عدوا . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة . فاقعدوا مع الخالفين) وقال تعالى في ضد هذا (٤٨ : ٢٠ - ٢٣) وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها . فعجل لكم هذه . وكفَّ أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين . ويهديكم صراطاً مستقيماً - إلى قوله - ولو قاتلكم الذين كفروا لؤلؤا الأدبار . ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل . ولن تجد لسنة تبديلاً) .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم . وهذا باب واسع .

فصل

وإذا كانت السيئات التي يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت - وهي مضرة - جاز أن يقال : هي مما أصابه من السيئات . وهي بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التي يعملها : هي من نفسه . وإن كانت مقدرة عليه . فإنه إذا كان الجزاء - الذي هو مسبب عنها من نفسه - فعمله الذي هو ذلك الجزاء : من نفسه بطريق الأولى . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

وقال له أبو بكر رضي الله عنه : علمني دعاء . فقال « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ربَّ كل شيء ومليكه . أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلمٍ » . قلُّه : إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعتك » .

فقد بين أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال . مع أن الكل بقدر الله .

فصل

وليس للقَدَرِية أن يحتجوا بالآية لوجوه : -

منها : أنهم يقولون : فعل العبد - حسنة كان ، أو سيئة - هو منه ، لا من الله . بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات ، والسيئات . لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات . وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم .

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات . وهم لا يفرقون في الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات . بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

لكن منهم من يقول : بأنه يُحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاءا . كما يقوله أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات . بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثاني : أنه قال « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله . وهم لا يقولون بذلك في الأعمال . بل في الجزاء . وقوله - بعد هذا - « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » مثل قوله « وإن تصبهم حسنة » وقوله « وإن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية أريد بها : النعم ، والمصائب . كما تقدم . وليس للقَدَرِية المجبرة أن تحتج بهذه الآية على نفى أعمالهم التي استحقوا بها العقاب . فإن قوله « كل من عند الله » هو النعم والمصائب . ولأن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم . وبيان أن الإنسان هو فاعل

السيئات . وأنه يستحق عليها العقاب . والله ينعم عليه بالحسنات - عملها وجزائها - فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله : فالنعم من الله . سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء - وهي من الله - : فالعمل الصالح الذي كان سببها : هو أيضاً من الله . أنعم بهما الله على العبد . وإلا فلو كان هو من نفسه - كما كانت السيئات من نفسه - لكان كل ذلك من نفسه . والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتاب والسنة . كما في الحديث الصحيح الإلهي : عن الله « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم بإياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى (٣ : ١٦٥)
أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم)
وقال تعالى (٣٠ : ٣٦) وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون)
وقال تعالى (٣٠ : ٤١) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس .
ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وقال تعالى (١١ : ١٠١) وما ظلمناهم ولكن ظلّموا أنفسهم) وقال تعالى (٤٣ : ٧٦) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)
وقال تعالى (٣٨ : ٨٥) لأملأن جهنم منك وعن تبعك منهم أجمعين) وقال تعالى للمؤمنين (٤٩ : ٧) ولكن الله حَبَّابٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ . أولئك هم الرَّاكِدُونَ) وقد أمروا أن يقولوا في الصلاة (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

فصل

وقد ظن طائفة : أن في الآية إشكالا ، أو تناقضاً في الظاهر ، حيث قال « كل من عند الله » ثم فرق بين الحسنات والسيئات . فقال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .
وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية . وليس في الآية تناقض . لافي ظاهرها ،

ولافى باطنها . لافى لفظها ولا معناها . فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكسين عن الجهاد . ما ذكره بقوله (٤ : ٧٨) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بسبب ما أمرتنا به من دينك ، والرجوع عما كنا عليه : أصابتنا هذه السيئات . لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب . والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد . وتتناول أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم ، والتطير . أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه . وكما قال أهل القرية للمرسلين (٣٦ : ١٨) إنا تطيرنا بكم) وكما قال الكفار من ثمود لصالح ، ولقومه (٢٧ : ٤٨) أطَّيرنا بك وبمن معك) فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب ، والزلازل والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - : هو منك . لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك . ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السمائية : إنها منك . أى بسبب طاعتنا لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى (٢٢ : ١١) ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمان به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة) .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بُعث به : مسبباً لشرِّ أصابه : إما من السماء . وإما من آدمى . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها . فإنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك . ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض . بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم . ومن فهم هذا تبين له أن قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك

من سيئة فمن نفسك » لا يناقض قوله « كل من عند الله » بل هو محقق له .
لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ما جاء به الرسول ، والعمل به :
سبباً لما قد يصيبهم من مصائب . وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .
وكانوا تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا مما أمر الله به . ولو كان
مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

وتارة لا يقدحون في الأصل . لكن يقدحون في القضية المعينة . فيقولون :
هذا بسوء تدبير الرسول . كما قال عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد - إذ كان
رأيه مع رأى النبي صلى الله عليه وسلم : أن لا يخرجوا من المدينة - فسأله صلى الله
عليه وسلم ناسٌ ممن كان لهم رغبة في الجهاد : أن يخرج . فوافقهم ، ودخل بيته
ولبس لأُمته . فلما لبس لأُمته ندموا . وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم « أنت
أعلم . فإن شئت أن لا نخرج ، فلا نخرج . فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأُمته
أن ينزعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يعنى : أن الجهاد يلزم بالشروع ، كما
يلزم الحجج . لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار في الحجج .

فصل

والمفسرون ذكروا في قوله « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك »
هذا وهذا .

فعن ابن عباس ، والسدى ، وغيرها : أنهم يقولون هذا ، تشاؤماً بدينه .
وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . قال : بسوء تدبيرك - يعنى كما قاله عبد الله
ابن أبي وغيره يوم أحد - وهم كالذين « قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا
ما قتلوا » .

فبكل حال : قولهم « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله : من الإيمان
والجهاد . وجعل ذلك : هو الموجب للمصائب التي تصيب المؤمنين المطيعين ، كما
أصابهم يوم أحد . وتارة تصيب عدوهم . فيقول الكافرون : هذا بشؤم هؤلاء ،

كما قال أصحاب القرية للمرسلين « إنا تطيرنا بكم » وكما قال تعالى عن آل فرعون « فإذا جاءتهم الحسنة ، قالوا : لنا هذه . وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّرُوا لموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقال تعالى عن قوم صالح « قالوا : اطيِّرنا بك وبن معك . قال : طائرکم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون » ولما قال أهل القرية « إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجنكم ، ولیمسنکم منا عذاب أليم . قالوا : طائرکم معکم . ائن ذُکرتُم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » . قال الضحاک : فی قوله « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قبل الله . ما أصابکم من أمر فمن الله ، بما کسبت أيديکم . وقال ابن أبي طلحة : عن ابن عباس « معايبکم » وقال قتادة « عملکم عند الله » . وفي رواية غير علی : عملکم عند الله « ولكنکم قوم تفتنون » أى تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواها ابن أبى حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل « طائرکم معکم » أى أعمالکم . فقد فسرُوا « الطائر » بالأعمال وجزائها ، لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم . فبين الله سبحانه : أن طائرهم - وهو الأعمال وجزاؤها - هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قُدِّرَ من جزائها معهم . كما قال تعالى (١٧ : ١٣) وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه) وهو من الله . لأن الله تعالى قَدَّرَ تلك المصائب بأعمالهم . فمن عنده تنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفي هذا يقال : إنهم إنما يميزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال في هذه الآية - لما كان المنافقون والكفار ومن في قلبه مرض يقول : هذا الذى أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا - بين سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففي هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاث تصيبه تلك المصائب . وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى من أصابته مع كفره بالرسول ، ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

فصل

والمقصود : أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس سبباً لشيء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلا جزاء أصحابها بخير الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم . لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم . لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلازل : ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، لكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليميز طيبه من خبيثه . والنفوس فيها شر . والامتحان يمحس المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه . قال تعالى (٣ : ١٤٠) وتلك الأيام نداؤها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب القوم الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين) وقال تعالى (٣ : ١٥٤) وليبلى الله مافي صدوركم . وليمحص مافي قلوبكم) ولهذا قال صالح عليه السلام لقومه « طأثركم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون » .

ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مامن غازية يغزون في سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم . وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح .

كما قال تعالى (٩ : ١٢٠) ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا نحرصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين .)
وشواهد هذا كثيرة .

فصل

والمقصود : أن قوله « إن تُصِيبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصيبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله » فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول . وكانوا يقولون : النعمة التي تصيبنا هي من عند الله . والمصيبة من عند محمد . أى بسبب دينه وما أمر به . فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتي إلا بنعمة ولا بمصيبة ولهذا قال بعد هذا « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » قال : السدى وغيره : هو القرآن . فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه : تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل ، والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب . فإنهم إذا فهموا ما في القرآن علموا : أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به : يعلم بالأمر به حسنة ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه . بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطهرون بالرسول وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك : أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال بعدها « وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً » فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشبه التي هي

عليهم لالهم بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته .
والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا . فكان ختم الكلام بهذا إبطالا
لقولهم : إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال ، بعد هذا « من يطع الرسول
فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

فصل

وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجرة ونحوهم ، ممن يقول : إن الله قد
يعذب العباد بلا ذنب . وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم . فإن
فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .
يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .
والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .
فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهي
حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاة القدر : إنما قال في الحسنة « هي من الله » وفي السيئة « هي
من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .
قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاء . وما لم يأمر
به لم يشأ . فكانت مشيئته وأمره حاضّة على الطاعة دون المعصية . فلهذا كانت
هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا « الحسنة من عند الله ، والسيئة من
عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أي بسبب دينك . فجعلوا رسالة الرسول هي
سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : إن الطاعة والمعصية — مما قد قيل — كان قوله « كل
من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لا ينافي ذلك . بل « الحسنه » أنعم الله بها وبثوابها . و « السيئة » هي من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى « من شر ما خلق » فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كان بقضائه وقدره .
واتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلاً وهذا فاعلاً ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها . وهذا مخالف للقرآن .

فصل

فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فما الفرق بين الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟ .

قيل : لفرق بينهما : -

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداء بلا سبب منهم أصلاً . فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر ، وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط . وينشئ للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة . وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل . وأما العقاب : فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثاني : أن الذي يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة (٧ : ٤٣) الحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وفي الحديث الصحيح « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم . ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .
فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة : هو من

نعمته ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به : هو من نعمته .

وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين : هو من نعمته . كما قال تعالى (١٧:٤٩) ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم . وكثره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة) .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة : هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .
فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إني لم أقدر ذلك ولم أخلقه . بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصل

فإذا تدبر العبد علم : أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله . فشكر الله . فزاده الله من فضله عملاً صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه . وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه : استغفر وتاب . فزال عنه سبب الشر . فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً . فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه . كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته « الحمد لله » فيشكر الله . ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة . ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله . فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس : أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا . ثم إذا عمل استعاذ بالله من

سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله . فاستعان على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلمُ العبدِ بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه : يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما في قوله « قل كل من عند الله » .

فبين أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصي ، على قول من أدخلها في « من عند الله » .

ثم بين الفرق الذي ينتفعون به . وهو أن هذا الخير : من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر : من ذنوبكم . فاستغفروه ، يدفعه عنكم .

قال الله تعالى (٨ : ٣٣) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال تعالى (١١ : ١ - ٣) آزر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير : أن لا تعبدوا إلا الله . إني لكم نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . ويؤت كل ذي فضل فضله) .

والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسى بالسعداء من الأنبياء والمؤمنين ، كآدم وغيره . وإذا أصر ، واحتج بالقدر : فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيها على الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله . والدعاء بذلك في الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً ، أو أجره إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . ويستعيز بما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .
وإذا علم أن الحسنة من الله - الجزاء والعمل - سأل أن يعينه على فعل
الحسنات . بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وبقوله (اهتدوا الصراط المستقيم)
وقوله (٣ : ٨) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من
هذا التسوية . فأعرض العاصي والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ،
والاستعاذة من شرها . بل وقام في نفسه : أن يحتج على الله بالقدر . وتلك حجة
داحضة ، لا تنفعه . بل تزيده عذاباً وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال (٧ : ١٦) فما
أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (١٥ : ٣٩) رب بما أغويتني لأزينن
لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) .

وكالذين يقولون يوم القيامة (٣٩ : ٥٧) لو أن الله هدانا لكانت من المتقين)
وكالذين قالوا (٦ : ١٤٨) لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء)
فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله به ، من التوبة
والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس
في الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع .

فصل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها ، ويثيب على المم بها . والسيئة
لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على المم بها . فيعطى صاحب الحسنة : من الحسنات فوق
ما عمل . وصاحب السيئة : لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى (٦ : ١٦٠) من جاء
بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلى مثلها . وهم لا يظلمون)
الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم .
فما من وجه من وجوها : إلا وهو يقتضى الإضافة إليه .
وأما السيئة : فهو إنما يخلقها بحكمة . وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه .

فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .
ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح « والخير
بيديك . والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه : ففيه
حكمة ، هو باعتبارها خير . ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر
جزئى إضافى . فأما شر كلى ، أو شر مطلق : فالرب منزّه عنه . وهذا هو الشر
الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف الشر
إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، كقوله (٢٥ : ٢) وخلق
كل شئ .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله (١١٣ : ٢) من شر ما خلق .
وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن (٧٢ : ١٠) وإنا لاندري أشراً أريد بمن
فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ .

* * *

وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل .
فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون .
لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح . وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح .
وفرقة : لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا الحكمة . بل قالت :
إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة . وما ثم
فعل تنزه عنه . بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله .

وجوزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية . وينهى عن كل إيمان وطاعة ،
وصدق وعدل . وأن يعذب الأنبياء ، وينعم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك . ولم
يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . قال تعالى (٤٥ : ٢١) حسب

الذين اجتروا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون) وقال تعالى (٦٨ : ٣٥ أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟) ونحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الحسن والمسيء . وأن من جوز عليه التسوية بينهما : فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة . بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئياً بالإضافة : يكون شراً كلياً عاماً . بل الأمور العامة الكلية : لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين . فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم وديارهم وآخرتهم .

وليس هذا كالمالك الظالم ، والعدو . فإن المالك الظالم : لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة يأمم ظالم : خير من ليلة واحدة بلا إمام . وإذا قدر كثرة ظلمه : فذاك ضرر في الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه . وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول - أى يدعى - أنه نبي : فلو أيدّه الله تأييد الصادق : لزم أن يسوى بينه وبين الصادق . فيستوى الهدى والضلال ، والخير

والشر، وطريق الجنة وطريق النار . ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم^(١) .

ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم : بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة . ونهى عن قتالهم والخروج عليهم . ولهذا قد يَمَكِّنُ الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبِّئون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم . لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى (٦٩ : ٤٤ - ٤٦) ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين (وقال تعالى (٢٤ : ٤٢) أم يقولون افتري على الله كذباً . فإن يشأ الله يحتم على قلبك) فأخبر : أنه - بتقدير الافتراء - لا بد أن يعاقب من افتري عليه .

فصل

وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والحجبة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس . وإذا جاز أن يعذب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حي بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره : جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام . وبين الشر الإضافي ، والشر المطلق . ولم يجعلوا في الشر الإضافي حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزّه عن تلك الأفعال . فإننا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى .

(١) من هذا يعلم فساد دعوى من يقول : إن معجزة الأنبياء تكون كرامة للأولياء ، يعنى أن كرامة الولي من جنس معجزة النبي . والفرق بينهما : هو تحدى النبي وعدم تحدى الولي . وهذا من وهى شياطين الجن لشياطين الإنس زخرف القول غرورا .

فقال المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك الخاص . وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو بفعل ما يفعل : بالخبر ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فهما قُدِّر : جاز أن يفعله ، وجاز أن لا يفعله . ليس في نفس الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى التخصيص ببعض الأفعال دون بعض . بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

ف قيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلاً على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم - مع الكفر بالأنبياء - أن لا يعلم الفرق ، لا بسمع ولا بعقل .

فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز الباري تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفتين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً في الخبر - ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التي بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها - هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدريّة النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصل

والمقصود هنا : الكلام على قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وأن هذه يقتضى : أن العبد لا يزل شاكراً مستغفراً .

وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة . هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

١٣ - مجموعة

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فنه (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) .

وقد قال سبحانه (١٥ : ٤٩ ، ٥٠ نبيء عبادى : أنى أنا الغفور الرحيم) ثم قال (وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقال تعالى (٥ : ٩٨ اعلوا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهي من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذى خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة . فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

وقوله « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم - كما قال ابن عباس وغيره - وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك (وأرسلنا للناس رسولا) وإما أن تكون لكل واحد واحد من الآدميين ، كقوله (٨٢ : ٦ يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم ؟) .

لكن هذا ضعيف . فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : ل قيل « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

لكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه : كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأخرى . كما فى مثل قوله (١ : ٣٣) اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقوله تعالى (٣٩ : ٦٥ لئن أشركت ليحبطن عملك) وقوله (١٠ : ٩٤ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لكن يتناول غيره بطريق

الأولى ، كقوله (٦٦ : ١ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ؟) ثم قال (قد فرض الله لكم تحلةً إيمانكم) .
ونوع : قد يكون خطابه خطاباً به لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين :
الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى : أنه لم يخاطب بذلك . بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشري . وإن كان هو لا يقع منه مانهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولي الأمر للأمر : سافر غداً إلى المكان الفلاني . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعزاً من عنده عن شيء . فيكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك »
الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون في هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولكن من يبلغ عنه يدخل في معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم « بلغوا عني ولو آية » وقال « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال « إن العلماء ورثة الأنبياء » وقد قال تعالى في القرآن (١٩ : ٦) وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن يبلغ) .

* * *

والمقصود هنا : أن « الحسنه » مضافة إليه سبحانه من كل وجه . و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها . كما خلق « الحسنه » فلهذا قال « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة ، بل تضاف إلى النفس التي تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً . لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل في هذا سيئات الجزاء والعمل . لأن المراد بقوله « ما أصابك من حسنة - ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه - لأنه أذنب - فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب . وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله « كل من عند الله » كما تقدم . لأنها لاتضاف إلى الله مفردة . بل إما في العموم ، كقوله « كل من عند الله » . وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر ، لاتذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع المعطى المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله (٣٢ : ٢٢) إنا من المجرمين منتقمون) .

وكل ما خلقه - مما فيه شر جزئي إضافي - ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك . مثل إرسال موسى إلى فرعون . فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه . وذلك شر بالإضافة إليهم . لكن حصل به - من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون - ما هو خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضرَّ به . كما قال تعالى (٤٣ : ٥٥ ، ٥٦) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) وقال تعالى بعد ذكر قصته (٧٩ : ٢٦) إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم : شق برساته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب . وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه . ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شق به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم . لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .
فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً . إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلاً ، بل هو شر بالإضافة .

فصل

الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقته ، ليس فى الحسنات أمر عدوى غير مضاف إلى الله . بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدته .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية . كما أن معرفته بأن الحسنات - كالعدل والصدق - حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه . وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى (٤٩ : ٧) ولكن الله حبيب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم . وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) وقال تعالى (٧٩ : ٤٠) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى) وقال تعالى (٢٩ : ٤٥) إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله . ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - يلقى في النار » .

وفي السنن عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم « أوثق عُرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله » .

وفيهما عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله . ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه - لما ذكر الخلوفاً - قال « من جاهدكم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وقد قال تعالى (٦٠: ٤) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه . إذ قالوا لقومهم : إنا بُرّاء منكم وما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء) .

وقال علي لسان الخليل (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧) إني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني ، فإنه سيهدين) وقال (٣٦ : ٧٥) أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوّ لي ، إلا رب العالمين) وقال (٦ : ٧٨ ، ٧٩) فلما أفَلَتَ ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ، ومن عابديه : هي أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته وموالات أوليائه : أمور موجودة في القلب ، وعلى اللسان والجوارح . وهي تحقيق قول « لا إله إلا الله » وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلاً صادقاً . ومنع تأليه لغير الله ، وبغض ذلك وكراهته . فلا يعبد إلا الله . ويجب أن يعبد ، وبغض عبادة غيره . ويجب التوكل عليه وخشيته ودعائه وبغض التوكل على غيره وخشيته ودعائه . فهذه كلها أمور موجودة في القلب . وهي الحسنات التي يثيب الله عليها . وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التي لا يحجبها ولا يبغضها . فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات . ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها . فكأنه لم يفعلها . فهذا تكون السيئات في حقه بمنزلتها في حق الطفل والمجنون والبهيمة . لا ثواب ولا عقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه بتحريمها . فإن لم يعتقد تحريمها ويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصل

وقد تنازع الناس في الترك : هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ . والأكثر على أنه وجودي .

وقالت طائفة - كأبي هاشم ابن الجبائي - إنه عدمي وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على ترك يقوم بنفسه . ويسمون « المذمية » لأنهم رتبوا الذم على عدم المحض .

والأكثر يقولون : الترك أمر وجودي . فلا يثاب من ترك المخطور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك المأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه . وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودي .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره . فيعاقب على ذلك .

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده ، فلا بد أن يكون عابداً لغيره . يعبد غيره فيكون مشركاً . وليس في بنى آدم قسم ثالث . بل إما موحد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالبلدلين من أهل الملل : النصارى ومن أشبههم من الضلال ، المنتسبين إلى الإسلام . قال الله تعالى (١٦ : ٩٨ - ١٠٠) فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (وقد قال تعالى (١٥ : ٤٢) إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين) لما قال إبليس (١٥ : ٣٩ ، ٤٠) لأزين لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين) .

فإبليس لا يغوى المخلصين . ولا سلطان له عليهم . إنما سلطانه على الفاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد . فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى (٣٦ : ٦٠ ، ٦١) ألم أعهد إليكم يا بنى آدم : أن لاتعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم) .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١) ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أ أكثرهم بهم مؤمنون) .

ولهذا يتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم

فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبي ، أو ولي . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكاً من الملائكة ، كما يصيب عباد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات ، يسمون أسماء ، يقولون : هى أسماء الملائكة ، مثل ميطرون وغيره . وإنما هى أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من مخاطبه ، فيظنه النبي ، أو الصالح الذى دعاه . وإنما هو شيطان تصور فى صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجرى لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم . ويستغيثون بهم . فيأتيهم من يقول : إنه ذلك المستغاث به فى صورة آدمى راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المستغيث : أنه ذلك النبي ، والصالح ، أو أنه سره ، أو روحانيته ، أو رقيقته تشكّل ، أو يقول : إنه ملك جاء على صورته . وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبي ، أو الصالح ، أو الملك . وأنه هو الذى شفع له ، أو هو الذى أجاب دعوته . وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلوّاً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلا بد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن ، وإما عابد للشيطان . قال تعالى (٤٣ : ٣٦ - ٣٩) ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نُقِصْ له شَيْطَانًا . فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين . فبئس القرين . وإن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم فى العذاب مشتركون) وقال تعالى (٢٢ : ١٧) إن الذين آمنوا والذين هادوا

والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة .
إن الله على كل شئ شهيد) .

فبنو آدم منحصرون في الأصناف الستة . وبسط هذا له موضع آخر .

فصل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل
الحسنات ، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات ، كترك الشرك - أمر وجودى ، وفعل
السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله - أمر وجودى . قال تعالى (٢٨ : ٨٤)
من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات
إلا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (١٧ : ٧) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وإن
أسأتم فلها) وقال تعالى (٤١ : ٤٦) من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وقال
تعالى (١٠ : ٢٧ ، ٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة .
أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها .
وترهقهم ذلة - إلى قوله - أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى
(٣٠ : ١٠) ثم كان عاقبة الذين أساءوا : السوأى ، أن كذبوا بآيات الله . وكانوا به
يستهنئون) .

فأما عدم الحسنات والسيئات : فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .
وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملًا ، وبقي مدة لا يفعل كثيراً من المحرمات ،
ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها . مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة
والدم ولحم الخنزير ، ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ،
ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف - حرم على كل من الزوجين أصول الآخر
وفروعه - فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها ، لأنه لم يسمع
ذلك : فهذا لا يثاب ولا يعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده . وإذا ترك ذلك - مع

دعاء النفس إليه - أثيب ثواباً آخر ، كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها . فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيهِ لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى هى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حبيب الإيمان إلى المؤمنين ، وزينة فى قلوبهم . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل

فى مدشأ السيئات

وأما السيئات : فمدشؤها الجهل والظلم . فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجودها ، أو لبغض نفسه لها .

وفى الحقيقة : فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل . وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضراراً راجحاً ، لم يفعله . فإن هذا خاصية العاقل . ولهذا إذا كان من الحسنات ما يعلم أنه يضره ضراراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو فى نهر يفرقه ، أو المرور بجانب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله فى البحر ونحو ذلك : لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه . ومن لم يعلم أن هذا يضره - كالصبي ، والمجنون ، والساهى والغافل - فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره - مع علمه بما فيه من الضرر عليه - فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجرم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح . فلا بد من رجحان الخير ، إما فى الظن وإما فى المظنون ، كالذى يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة

للرجح . فإنه لو جزم بأنه يفرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والرجح ، وإن كان مخطئاً في هذا الظن .

وكذلك الذنوب : إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع ، لم يسرق . وكذلك الزانى : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن . والشارب يختلف حاله . فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك . ولهذا كان الصحيح : أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهى إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك . كما جاءت بذلك الأحاديث . كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله . بل إما أن لا يكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته . بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله . ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً . فيبقى غافلاً . غير مُستحضر للتحريم . والغفلة من أضرار العلم .

فصل

الغفلة والجهالة والشهوة : أصل كل شر

فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى (١٨ : ٢٨) ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فُرطاً) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل . وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع . فإن الله تعالى جعل في النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها . فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً . بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهي ، وذو حجة .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان . لا من مجرد النفس . فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن . التي هي منافع

لأضرار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال (٢٠ : ١٢٠ ، ١٢١ يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما) (٧ : ٢٠) وقال : مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين) . ولهذا قال تعالى (٤٣ : ٣٦) ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعالى (٣٥ : ٦) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟) وقال تعالى (٦ : ١٠٨) ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زيننا لكل أمة عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون) . وقوله « زيننا لكل أمة عملهم » هو بتوسيط تزيين الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين للخير . وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى (٦ : ١٣٧) وكذلك زين لكثر من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم . وليلدسوا عليهم دينهم) .

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى (٤ : ١٧) إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . ثم يتوبون من قريب) كقوله (٦ : ٥٤) وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . فقل : سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة . ثم تاب من بعده وأصلح . فإنه غفور رحيم) ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية . قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ؟ (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب . وعن قتادة قال « أجمع أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل

من عصى ربه فهو في جهالة ، عمداً كان أو لم يكن . وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً - من شيخ ، أو شاب - فهو بجهالة . وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهالة العمد . وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءاً خطأً ، أو إثمياً عمداً : فهو جاهل حتى ينزع منه . رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : وروى عن قتادة ، وعمر بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك « خطأً ، أو عمداً » .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالاً ولا حراماً . ولكن من جهالته : حين دخل فيه . وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة . وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم . قيل له : أرايت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها . فإنها جهالة . قلت : وما يبين ذلك : قوله تعالى (٣٥ : ٢٨) إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم . كما قال تعالى (٣٩ : ٩) أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ؟ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ، ويرجو رحمة ربه . قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) .

وقال رجل للشعبي : أيها العالم . فقال : إنما العالم من يخشى الله . وقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضي أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف . قال ابن مسعود « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلاً » . ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين . حصر الأول في الثاني . وهو مطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله (٣٦ : ١١) إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) وقوله (٧٩ : ٤٥) إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (٣٢ : ١٥)

١٦ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم . وهذا كالاستثناء . فإنه من النفي : إثبات ، عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » وقوله تعالى (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقوله (٣٤ : ٢٣) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (٢٥ : ٣٣) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) . وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه . لم يثبت له ما ذكر . ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك في صيغة الحصر بطريق الأولى . فيقولون : نفى الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور . أن هذا كقوله (٧ : ٣٣ قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن . والإثم والبغى بغير الحق) فإنه ينفي التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتنا للجنس . أو لكل واحد واحد من العلماء ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتضى أو شرط ؟ .

ففي هذه الآية وأمثالها : هو مقتضى . فهو عام . فإن العلم بما أذرت به الرسل يوجب الخوف . فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات ، وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل . ليس بتام العلم . يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك . فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشيء الموجود . والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يفتن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوهُ إلى الحسنات ، وترك السيئات .
والنفس بطبعها متحولة . فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم
الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « أصدق الأسماء :
حارث وهام » فكل آدمي حارث وهام . أى عامل كاسب ، وهو هام . أى يَهْمُ
ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء في الحديث « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، وللقلب
أشدُّ ثقلًا من القدر إذا استجمعت غليانًا » .
فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها . فإذا هداها الله : علمها ما ينفعها
وما يضرها . فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصل

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين . هما أصل السعادة .
أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ،
أو يمجسانه ، كما تُتَنَجَّى البهيمة بهيمةً جَمْعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم
يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليها) »
قال تعالى (٣٠ : ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم) .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول
الله تعالى : خلقت عبادى خُنفاء . فاجتالهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحلت
لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة له ، تعبدُهُ لا تشرك
به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى
بعض من الباطل . قال تعالى (١٧٢ : ٧) وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم

ذرياتهم . وأشهدهم على أنفسهم ، ألسنت بر بكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا
يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل ،
وكننا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) .
وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع .

الثانى : أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من
المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال
تعالى (٩٦ : ١ - ٥) اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ
وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) وقال تعالى (٥٥ : ١ - ٣)
الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان) وقال تعالى (٨٧ : ١ - ٣) سبح
اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قَدَّرَ فهدى) وقال تعالى (٩٠ : ١٠)
وهديناه النجدين) .

ففى كل أحد ما يقتضى معرفته بالحق ومحبه له . وقد هداه ربه إلى أنواع
من العلم ، يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة . وجعل فى فطرته محبة
لذلك . لكن قد يُعرض الإنسان - بجهليته وغفاته - عن طلب علم ما ينفعه .
وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريد : أمر عدى ، لا يضاف إلى الله تعالى . فلا
يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

الحركة والإرادة من لوازم النفس

لكن النفس كما تقدم : الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية
لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيى الحياة النافعة الكاملة . وكان مالها
من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها . فلا هى حية متنعة بالحياة . ولا هى ميتة
مستريحة من العذاب . قال تعالى (٨٧ : ٩ - ١٣) فذكر إن نعمت الذكري .
سيدكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها
ولا يحيى) فالجزاء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس بحى الحياة النافعة
١٤ - مجموعة

التي خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان في الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينتفع به الحيّ ويستلذ به . والحي لا بد له من لذة أو ألم . فإذا لم تحصل له اللذة : لم يحصل له مقصود الحياة . فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حي في الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لاتدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء . فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

فلما كان من طبع النفس الملازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث هم . فإن عرفت الحق وأرادته . وأحببته وعبدته : فذلك من تمام إنعام الله عليها . وإلا فهي بطبعها لا بد لها من مراد معبود غير الله . ومرادات سيئة تضرها . فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبد . وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل . ومن كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود . فعبدت غيره . وهذا هو الشر الذي تعذب عليه . وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

والقدريّة يعترفون بهذا جميعه وأن الله خلق الإنسان مريداً . لكن يجعلون الخلق كونه مريداً بالقوة والقبول . أي قابلاً لأن يريد هذا وهذا . وأما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله . وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً . فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريد من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء . وهو الذي ألهم النفس - التي سواها - فجورها وتقواها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكّئها ، أنت خير من زكّاها . أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره . وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير ، لا شر . وإن كان شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهنم : أن الله يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه لأحد . لا لحكمة ولا رحمة . والاخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض : كان هذا ذمّاً لهم ، وكان باطلاً . وإذا قيل : يجاهدون فى سبيل الله لتسكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم . أحسن كل شئ خلقه ، وأتقن ماصنع ، وهو أرحم الراحمين . أرحم بعباده من الوالدة بولدها . والخير كله بيديه . والشر ليس إليه . بل لا يفعل إلا خيراً . وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة — كان هذا حقاً . وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذى لا خير فيه ولا منفعة لأحد . ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه . بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بينا بعض ما فى خلق جهنم وإبليس من السيئات : من الحكمة والرحمة .

وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين . ومالك يوم الدين .

الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . الذى لا يحصى العباد ثناء عليه . بل هو كما أثنى على نفسه . الذى له الحمد فى الأولى والآخرة . وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ، وإحسانه إلى عباده . سبحانه وتعالى . يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده . هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقا .

* * *

وقد ذكرنا - فى غير هذا الموضع - ما قيل : من أن كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمده وبشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم (٥٣ : ٥٥ فبأى آلاء ربك تتماهى ؟) وفى سورة الرحمن يذكر (كل من عليها فان) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج بن الجوزى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى من هذه الأشياء المذكورة . لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلائها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم ما به قوامكم .

وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله « فبأى آلاء ربك تتماهى ؟ » فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تُكذَّب ؟ .

قلت : قد ضمن « تتماهى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التماهى : تفاعل من المراء . يقال : تماهينا فى الهلال . والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتماهى » أى يتمارون . ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماهيا . قالوا : والخطاب للانسان . قيل للوليد بن المغيرة . فإنه قال (٥٣ : ٣٦ - ٣٨ أم لم يتبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى

وفى : أن لاتزر وزارة وزر أخرى) ثم التفت إليه فقال « فبأى آلاء ربكما تتماهى ؟ » تكذبان . كما قال (٥٥ : ١٤ - ١٦ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

ففى كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

فجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ، كالتقلين الخاطبين بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » من جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدم بها ونصرهم . وإهلاك عدوم - كما ذكره فى سورة النجم (٥٣ : ٥٠ - ٥٤) وأنه أهلك عاداً الأولى ونمود ، فما أبقى . وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . ففشاها ماعشى) يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد . مابشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك (٥٣ : ٥٦ هذا نذير من النذر الأولى) قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سى كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله (١٨٨ : ٧) إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال تعالى (٨ : ٤٨) إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وقال تعالى فى القرآن (٤١ : ٢) كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً) وهما متلازمان .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .
ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

أفضل النعم

فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى (١٢ : ١١١) لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) وقال تعالى (٥٠ : ٨) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . وما يصيب الإنسان ، إن كان يسره : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياهم . ويثاب بالصبر عليه . ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها (٢ : ٢١٦) وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وقد قال في الحديث « والله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سرء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

وكلتا نعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتححتاج إلى الصبر على الطاعة فيها . فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفي الحديث « أعوذ بك من فتنة الفقر . وشر فتنة الغنى » .

والفقر : يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين . لأن فتنة الفقر أهون .

وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر . لكن لما كان في السراء : اللذة . وفي الضراء :

الألم . اشتهر ذكر الشكر في السراء ، والصبر في الضراء . قال تعالى (١١ : ٩ ، ١٠)

ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء

بعد ضراء مسته : ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا

وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر . فإن صَبَرَ هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات . وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر - الذى هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتى به من الصبر . فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

والمقصود هنا : أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

وأما ذنوب الإنسان : فهي من نفسه . ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة . وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله « اللهم لا تجعلنى عبرة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى » .

وفى دعاء القرآن (١٠ : ٨٥ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) (٦٠ : ٥ ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا) كما فيه (٢٥ : ٧٤ واجعلنا للمتقين إماماً) أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى . و « الآلاء » فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونهبهم على قدرته . جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ الجن كان أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة - فبأي آلاء ربكما تكذبان - إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد » .

القرآن كله تذكير بآيات الله

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته . ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده . ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى . وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والاتقاع بالمال كل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد . فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل . وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

الفرق بين الحمد والشكر

وعلى هذا : فكثير من الناس يقول : الحمد أعم من الشكر . من جهة أسبابه . فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة . والشكر أعم من جهة أنواعه . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا على نعمة . والحمد لله على كل حال . لأنه مامن حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف مافي المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة .
والجهمية أيضاً بمنزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما ثم إلا نفع
الخلق . فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل
مالا ينتفع به ، ولا ينتفع به أحداً . فهذا لا يحمد .

لحقيقة قول الجهمية أتباع جهنم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد
مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام . إذ كان عندهم يشاء
مالا يكون ، ويكون مالا يشاء . وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامين . وهو محمود على حكمته ، كما
هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال (٣ : ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً
بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فله الوجدانية في إلهيته ، وله العدل ، وله
العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة فقد
نقص الرب بعض حقه .

والجمعي الجبري لا يثبت عدلاً ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته
والمعتزلي أيضاً لا يثبت في الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلاً في الحسنات والسيئات ،
ولا عزة ولا حكمة في الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى
غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره
هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر . فهو أول الشكر .

والحمد - وإن كان على نعمته وعلى حكمته - فالشكر بالأعمال : هو على نعمته . وهو عبادة له لإلهيته التي تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا في الشكر . ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذ كان نوعاً من الشكر .

وشرع الحمد - الذي هو الشكر المقول - أمام كل خطاب مع التوحيد .
ففي الفاتحة : الشكر والتوحيد . والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد . والباقيات الصالحات نوعان . فسبحان الله وبحمده : فيها الشكر والتنزيه والتعظيم . ولا إله إلا الله . والله أكبر : فيها التوحيد والتكبير .
وقد قال تعالى (٤٠ : ٦٥) فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

* * *

وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح ، وإن لم يكن باختياره ، أو لا يكون الحمد إلا على الأمور الاختيارية . كما قيل في الذم ؟ فيه نظر ليس هذا موضعه .
وفي الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ربنا ولك الحمد . ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا نجدة منك الجدة » هذا لفظ الحديث . « أحق » أفعل التفضيل .

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين ، فقالوا « حق ما قال العبد » . وهذا ليس لفظ الرسول . وليس هو بقول سديد . فإن العبد يقول الحق والباطل . بل حق ما يقوله الرب . كما قال تعالى (٣٨ : ٨٤) فالحق والحق أقول) . ولكن لفظه « أحق . ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف . أي الحمد أحق ما قال العبد . أو هذا - وهو الحمد - أحق ما قال العبد .

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ما قاله العباد . ولهذا أوجب قوله في كل صلاة ، وأن تفتتح به الفاتحة . وأوجب قوله في كل خطبة ، وفي كل أمر ذي بال .
والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .
وأما إذا قيل : بل يخلق ما هو شر محض ، لا نفع فيه ، ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجيح مثلاً على مثل . لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق ، بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده . وهو - مع هذا - يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة - ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية - : لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .
ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن . ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثير من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر في كلامه ما يقتضي هذا . ومن لم يقله بأسانه فقلبه ممتلئ به ، لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .
وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .
وهو خلاف ما وصف الله به نفسه ، في قوله تعالى (٤٣ : ٧٦) وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وقوله (١١ : ١٠٢ و ١٦ : ١١٨) وما ظلمناهم ولكن ظلوا أنفسهم) وقوله (٤١ : ٤٦) وما ربك بظلام للعبيد) .
كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أشاء بعضهم إلى بعض ، أو قصر في حقه

لـكان يؤاخذـه ، و يعاقبه و ينتقم منه . و يكون ذلك عدلا إذا لم يعتد عليه .
ولو قال : إن الذى فعلته قُدِّرَ علىّ فلا ذنب لى فيه : لم يكن هذا عذراً له
عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً
بالقدر . فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟ .

وهو سبحانه الحكيم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة . وإن تَكُ حسنة
بضائعها . ويؤت من لـدنه أجراً عظيماً . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .
فقوله « أحق ما قال العبد » يقتضى : أن حمد الله أحق ما قاله العبد . فله
الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه
سبحانه وتعالى . وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من
الشر لحكمة بالغة ، ورحمة سابعة .

فإذا قيل : فلم لم يخلقها على غير هذا الوجه ؟ .

قيل : كان يكون ذلك خلقاً غير الإنسان . وكانت الحكمة التى خلقها بخلق
الإنسان لا تحصل . وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا (٢ : ٣٠) أنجعل فيها من
يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) ما لم تعلمه الملائكة ، فكيف يعلمه آحاد الناس .
ونفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى (٧٠ : ١٩ - ٢١) إن الإنسان خلق
هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً) وقال تعالى (٣٧ : ٢١) خلق
الإنسان من عجل) .

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ما وجد منها الحكمة عظيمة ، ورحمة عميمة .
فكان ذلك خيراً ورحمة . وإن كان فيه شر إضافي ، كما تقدم . فهذا من جهة
الغاية مع أنه لا يضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثانى من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التى تصلح النفس . فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته . وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك . وهذا كله من فضل الله وإحسانه . لكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات - من شياطين الإنس والجن - مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فكان فعلها للسيئات . مركباً من عدم ماينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خروها . والعدم لا يضاف إلى الله . وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحكمة . فلما كان عدم ما تعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذى لاخير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لا يضاف إلى الله . فإنه ليس شيئاً . والله خالق كل شئ : كانت السيئات منها باعتبار ذاتها فى نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التى تحصل منها مع عدم ما يصلحها تلك السيئات .

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين . إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شئ ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، واعترافاً بقره وحاجته إلى الله ، وأنه إن لم يهده فهو ضال . وإن لم يتب عليه فهو مصرّ . وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ، ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهى عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول . وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيد ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب سبحانه محمود لنفسه وإحسانه إلى خلقه . ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه وإحسانه إلى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه . لأنه حكمه عدل . لا يفعل إلا خيراً وعدلاً . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له « إن أصابته سرأ شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر . فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه - من الحمد والثناء - ولأنه محسن إلى المؤمن .

وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب . فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل في الحديث . إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب ، كما في قوله (٤ : ٧٩) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولهذا قال « إن أصابته سرء شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضرء صبر . فكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سرء وضرء . هذا ظاهر لفظ الحديث . فلا إشكال عليه .

الوجه الثاني : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » . فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره . فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها . فإن تاب أبدلت بحسنة . فيشكر الله عليها . وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها . فيكون ذلك خيراً له . والرسول صلى الله عليه وسلم قال « لا يقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذي لا يصبر على ذنب ، بل يتوب منه . فيكون حسنة كما قد جاء في عدة آيات : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن - بسبب الذنب - من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك . فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو في ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه . فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى « أهل ذكرى أهل مجالستي . وأهل شكرى أهل زيارتي . وأهل طاعتي أهل كرامتي . وأهل معصيتي لا أؤبسهم من رحمتي . إن تابوا فأنا حبيبهم » أي محبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم . أبتليهم بالمصائب لا كفر عنهم المعائب » .

ما في قوله « في نفسك » من الفوائد

وفي قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها . فإن الشر لا يحى إلا بها . ولا يشتغل بلام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه . فإن ذلك من السيئات التي أصابته . وهي إنما أصابته بذنوبه . فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها . ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله . ويسأل الله أن يعينه على طاعته . فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر . ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه : دعاء القاتمة (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته . فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان . وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟ .
وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .
بل العبد محتاج إلى أن يُعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله . وإلى ما يتولد
من تفاصيل الأمور في كل يوم . وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .
فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله الله مريداً للعمل بعلمه . وإلا كان العلم
حجة عليه . ولم يكن مهتدياً . والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك
الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم من
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - إلا بهذه العلوم والآراء والقدرة
على ذلك .

ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه .
ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .
فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .
وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبار أحوال نفسه ونفوس الإنس
والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى ما في النفوس من الجهل والظلم الذي يقتضي
شقاءها في الدنيا والآخرة . فيعلم أن الله - بفضله ورحمته - جعل هذا الدعاء من
أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

ما في قصص القرآن من العبر

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعبر
بها ، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول ، وكنا مشتركين في المقتضى للحكم
فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل -
فرعون ومن قبله - لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط . ولكن الأمر

كما قال تعالى (٤١ : ٦٠ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) وكما قال تعالى (٥١ : ٥٢ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر أو مجنون) وقال تعالى (١١٨ : ٢) كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم . تشابهت قلوبهم) وقال تعالى (٩ : ٣٠ يضاهون به قول الذين كفروا من قبل) .

لتركن سنن من قبلكم

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوً الْقَدَّةَ بِالْقَدَّةِ ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وقال « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديين في الصحيحين . ولما كان في غزوة حُنين كان للمشركين شجرة - يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر . قلت كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لَتَرَكُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم » .

وقد بين القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

أعظم السيئات

فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة ونِدْأً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع . فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال (٢٨ : ٣٨) ما علمت لكم من إله غيري) وقال (٧٩ : ٢٤) أنا ربكم الأعلى) وقال لموسى (٣٦ : ٢٩) لن اتخذ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) و (٤٣ : ٥٤) استخف قومه فأطاعوه) .

وإبليس يطلب : أن يعبد ويطاع من دون الله . فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا . إن لم يُعِنْ الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان . قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها مافى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر . وغيره عجز فأضمّر .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

حب النفس للرياسة والعلو

فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها . فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ، ويعاذى من يخالفه فى هواه . وإنما معبوده : مايهواه ويريده . قال تعالى (٤٣:٢٥) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟) والناس عنده فى هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « يارباعى » أى صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان ولياً ، وإن كان كافراً مشركاً . ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه هو حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء - وإن كانوا يقرون بالصانع - لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده . فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه ، وإن

كان فيها ماهو ذنب ومعصية لله . ويكون من أطاعه في هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون . وسائر المكذبين للرسول .

وإن كان عالماً - أو شيخاً - أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس . فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والافتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبعياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل مادعا إليه موسى . قال تعالى (٢ : ٩١) وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقاً لما معهم) وقال تعالى (٩٨ : ٤) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) .

عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون

ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم . فقال تعالى عن فرعون (٢٨ : ٤) إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين) وقال تعالى عنهم (١٧ : ٣) وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب : لتفسدن في الأرض مرتين . ولتعلن علواً كبيراً) ولهذا قال تعالى (٢٨ : ٨٣) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدن علواً في الأرض ولا فساداً) والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، لذكروه ، ويشكروه ، ويعبدوه وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، كما أرسل كل رسول مثل ذلك . قال تعالى (٢١ : ٢٥) وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى

(٤٣ : ٤٥) وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال (٢١ : ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون) وقال تعالى (٢٣ : ٥١ - ٥٣) يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً . إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم . فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زُبْراً . كل حزب بما لديهم فرحون) .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد . وربكم رب واحد . والشرعية مختلفة^(١) . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى دينكم دين واحد . قال ابن أبي حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بين لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة . وهكذا قال جمهور المفسرين .

معنى « الأمة »

و « الأمة » الملة . والطريقة ، كما قال تعالى (٤٣ : ٢٢) قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون - مقتدون) كما يسمى « الطريق » إماماً . لأن السالك فيه ياتم به . فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى ياتم به الناس . كما أن « الإمام » هو

(١) شريعة المرسلين واحدة فى الأسس والمقصد . وهى الدعاء إلى إخلاص العادة لله وحده ، وعبادته بما شرع والبراءة من كل مغبود سواه ، ومن كل مشرع سواه . لهداية الناس لما يختلفون فيه من الحق بإذنه ، فإنهم إنما يسعدون بمعرفة الحق وإيتاء كل ذى حق حقه . ويشقون بحملهم الحقوق وتعديهم الحدود .

الذى يأتى به الناس . وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً . وأخبر (١٦ : ١٢٠) أنه كان أمة) .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً . لا يتفرون فيه ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقد قال الله تعالى (١٣ : ٤٢) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين . ولا تتفرقوا فيه) ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضاً . لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

المتبع للرسول يدعو إلى ما يدعو إليه

فمن كان من المطاعين - من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك - متبعاً للرسول : أمر بما أمروا به . ودعا إلى ما دعوا إليه . وأحب من دعا إلى مثل ما دعا إليه . فإن الله يحب ذلك . فيحب ما يحبه الله تعالى . وهذا قصده فى نفس الأمر : أن تكون العبادة لله تعالى وحده . وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود . فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون . ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعادة فيه . وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به . فالْمُؤْمِنُ المتبع للرسول : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليسكون الدين كله لله ، لاله . وإذا أمر أحدٌ غيره بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسرَّ بوجود مطلوبه . وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويعلم أن الله قد مَنَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ، التي ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شئ .
ولهذا فرضت عليهم قراءتها في كل صلاة دون غيرها من السور . ولم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في القرآن مثلها . فان فيها (إياك نعبد وإياك نستعين) .

المؤمن لا يرى له فضلا على أحد

فالمؤمن يرى : أن عمله لله ، لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله . لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً . لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار (٧٦ : ٩) إنما نطعمكم لوجه الله . لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه . فإنه قد علم : أن الله هو المانُّ عليه ، إذ استعمله في الإحسان . وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص . فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسره لليسرى . وعلى ذلك : أن يشكر الله . إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره ليمُنَّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمن عليه . فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه . ولا عمل لله ، ولا عمل بالله . فهو المرائي .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائي . قال تعالى (٢ : ٢٦٤ ، ٢٦٥) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالأذى ينفق ماله رياء الناس . ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثل كمثل صفوان عليه تراب . فأصابه وابل فتركه صلداً . لا يقدر على شئ مما كسبوا . والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتاً من أنفسهم : كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين . فإن لم يصبها وابل فطلت . والله بما تعملون بصير) .

قال قتادة « تثبتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم . وقال الشعبي : يقيناً ، وتصديقاً من أنفسهم . وكذلك قال الكاكي . قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم . على يقين بالثواب ، وتصديق بوعده الله . يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله ، مصداقاً بوعده الله له : طلب من الله ، لامن الذي أعطاه ، فلا يمن عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مالكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمن على المالك . لا سيما إذا كان يعلم : أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

فصل

الفرق السادس : أن يقال : إن ما يتلى به العبد من الذنوب الوجودية - وإن كانت خلقاً لله - فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له . وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له . ودله على الفطرة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى (٣٠ : ٣٠) فأقم وجهك للدين حقيقاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أ. كثر الناس لا يعلمون .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به - من معرفة الله وحده . وعبادته وحده - عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي . قال تعالى للشيطان (١٧ : ٦٣ - ٦٥) اذهب . فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً - إلى قوله - إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال تعالى (١٦ : ٩٩ ، ١٠٠) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا . وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون . (٧ : ٢٠١ ، ٢٠٢) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا . فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدّونهم في النّفى ثم لا يقصرون .

إخلاص الدين لله يحفظ من تسلط الشيطان

فقد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب . كما قال تعالى (١٢ : ٢٤) كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين) .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك . وإذا لم يخلص لربه الدين ، ولم يفعل ما خلق له ، وفطر عليه : عوقب على ذلك . وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يزين له فعل السيئات . وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله . وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدى . لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وما أمر به . وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدى . لكن بفعل السيئات ، لا بالعقوبات التي يستحقها بعد إقامة الحجة عليه ، بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .
والأكثر يقولون : لا يعاقب عليه ، لأنه عدم محض . ويقولون : إنما يعاقب على الترك . وهذا أمر وجودي .

وطائفة - منهم : أبو هاشم - قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه كما يعاقب على فعل الذنوب ، بالنار ونحوها .

وما ذكر في هذا الوجه : هو أمر وسط . وهو أن يُعاقب على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها . ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله . فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولاً : إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه . أو بأن لا تقوم عليه الحجة . وهو كالصبي الذي لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعود من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعد البلوغ ، وهو لم يُعاقَب إلا على ذنبه . ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

الشر ليس إلى الله

وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه . فإنه - وإن كان الله خالق أفعال العباد - فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة ، وهو - مع هذا - عدل منه ، فما ظلم الناس شيئاً . ولكن الناس ظلموا أنفسهم . وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه . وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التي خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاءً لذلك العمل . كقوله تعالى (٦ : ١٢٥) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يُضِلَّهُ يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) وقال تعالى (٦١ : ٥) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (٩٢ : ٨ - ١٠) وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالاً ، عاقبهم بها على فعل محظور ، وترك مأمور . وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلق فيهم ، لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بد لهم من حركة وإرادة . فلما لم يتحركوا بالحسنات : حُرِّكوا بالسيئات ، عدلاً من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له - وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملاً - فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه - إذا حقق - يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين

يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة الله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً .
والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك
لالسبب ولا الحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم في تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم :
عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به . فما ظلمهم ، ولكن هم ظلموا أنفسهم .
يقال : ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى (١٨ : ٣٣) كلتا الجنتين آتت أكلفها
ولم تظلم منه شيئاً) .

وكثير من أولئك يسلعون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له
على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .
فلا ينازعون في نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون : ما خلق شيئاً من
الذنوب ابتداء ، بل إنما خلقها جزاء لثلاث يكون ظالماً .

الذنب يحدثه العبد

فنقول : أول ما يفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون
جزاء على ذلك : فالله أحدثه . وهم لا ينازعون في مسألة خلق الأفعال إلا من هذه
الجهة . وهذا الذي ذكرناه : يوافقون عليه . لكن يقولون : أول الذنوب لم يحدثه
الله ، بل يحدثه العبد ، لثلاث يكون الجزاء عليه ظالماً .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شيء . فما حدث شيء إلا بمشيئته
وقدرته . لكن أول الذنوب الوجودية : هو الخلق . وذاك عقوبة على عدم فعل
العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغي له أن يفعله .

وهذا العدم لا يجوز إضافته إلى الله . وليس بشيء ، حتى يدخل في قولنا
« الله خالق كل شيء » وما أحدثه من الذنوب الوجودية ، فأولها : عقوبة للعبد
على هذا العدم . وسائرهما : قد يكون عقوبة للعبد على ما وجد . وقد يكون
عقوبة له على استمراره على العدم .

فما دام لا يخلص الله العمل : فلا يزال مشركا . ولا يزال الشيطان مسلطا عليه . ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه - بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله - هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله (١٠٥:٢) والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها ، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية ، وغير ذلك من حكمته .
و بتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

فصل

ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان : قوله تعالى (١٠٩:٦ ، ١١٠) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم في طغيانهم يعمهون) وهذا من تمام قوله (وما يشعركم : أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم - الآية) فذكر : أن هذا التقلب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان ، وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان . وما ذكر شرط في التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول . فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح - من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك - وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .
ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودى ، لا ضده إلا ذلك .

فصل

الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التي تتناول الأعمال والجزاء في كون هذه تضاف إلى النفس . وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التي تصيب الإنسان -

وهي مصائب الدنيا والآخرة - ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه .
فانحصرت في نفسه .

وأما ما يصيبه من الخير والنعم : فإنه لا تنحصر أسبابه . لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، يحصل بعمله وبغير عمله . وعمله نفسه من إنعام الله عليه . وهو سبحانه لا يجزى بقدر العمل ، بل يضاعفه له . ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها ، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه . فيرجع فيها إلى الله . فلا يرجو إلا الله . ولا يتوكل إلا عليه . ويعلم أن النعم كلها من الله . وأن كل ما خلقه فهو نعمة ، كما تقدم . فهو يستحق الشكر المطلق العام التام ، الذي لا يستحقه غيره .

ومن الشكر : ما يكون جزاء على ما يَسَّرَه على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما . فإنه « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لكن لا يبلغ من حق أحد وإنعامه : أن يُشكر بمعصية الله . أو أن يطاع بمعصية الله . فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التي لا يقدر عليها مخلوق . ونعمة المخلوق إنما هي منه أيضاً . قال تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) وقال تعالى (٤٥ : ١٣ وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعاً منه) وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لا يقدر أحد على مثله .

فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق في معصية الخالق كما قال تعالى (٢٩ : ٨ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) وقال في الآية الأخرى (٣١ : ١٥ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيا معروفاً . واتبع سبيل من أناب إلىَّ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « على المرء المسلم : السمع والطاعة في سره ويسره ، ومَنشَطه ومَكْرَهه ، ما لم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما الطاعة

في المعروف » وقال « من أمركم بمعصية الله فلا تطيؤوه » وقال « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله . فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو . وأنه (٢:٣٥) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فلا مرسل له من بعده (صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر - الذي لا يستحقه غيره - صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق في شكر الله ، والتوكل عليه . ولو قيل : إنها من نفسه لكان غلطاً . لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل : فإن الله هو المنعم به . فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله . ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه في النفس . فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى . فاستغفر ربه مما فعل وتاب . واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف « لا يَرْجُونَ عبد إلا ربه . ولا يخافَنَّ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، الذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب . ويعذب أطفال الكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً ، سواء كان له ذنب أو لم يكن له ذنب . ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذي لا ينضبط فعله ولا سلطوته بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التي تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف - ابن عباس وغيره - أن ما أصابهم يوم أحد من الغمّ والفشل : إما كان بذنوبهم . لم يستثن من ذلك أحد .
وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لثلاث يظن أنه عام مخصوص .
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفرَّ الله بها من خطاياها » .

فصل

السيئة خبيثة مذمومة

الفرق الثامن : أن السيئة إذا كانت من النفس . والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث في مثل قوله (٢٤ : ٢٦ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) .
قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى (٢٦ : ١٤) ضرب الله مثلا : كلمة طيبة - ومثل كلمة خبيثة (وقال الله (٣٥ : ١٠) إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والأقوال والأفعال صفات القائل الفاعل .

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .
فن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرهم الناس كالسنائير : لم يصلح .
ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .
وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم . أو يجعل العاجز الجبان مقاتلاً عن الناس . أو يجعل الأحمق الذى لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب : فمثل هذا يوجب الفساد فى العالم . وقد يكون غير ممكن . مثل من أراد أن يجعل الحجارة تسبح على وجه الماء كالسفن ، أو تهبط إلى السماء كالرياح ونحو ذلك .

فالنفس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء . فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة . كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن المؤمنين إذا نجوا من النار - أى عبروا الصراط - وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا . فإذا هذبوا ونُقُوا : أذن لهم في دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخارى عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخلص المؤمنون من النار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقُوا : أذن لهم في دخول الجنة . فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب . فيخلص من النش . فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ . وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنات . فإنها من إناعام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر . فسببها دائم . فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع في السعادة التامة ، مع ما فيه من الشر . بل علم تحقيق قوله تعالى (٤ : ١٢٣) من يعمل سوءاً يُجْزَ به) وقوله (٧٩ : ٨ ، ٧) فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان . وكل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يمين الله مَلَأَى .

لا يغيضها نفقة ، سَحَاءَ الليل والنهار . أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يَغِيضْ ما في يمينه . والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .
وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولا عدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها . فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه . وهو سبحانه قد شهد (٣ : ١٨) أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ولهذا يقولون : لا ندري ما يفعل بمن فعل السيئات . بل يجوز عندهم : أن يعفو عن الجميع . ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع . ويجوز أن يعذب ويعفو بلا موازنة . بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ولا حسنات ماحية ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر ، خبر الله ورسوله .
قالوا : وليس في الكتاب والسنة ما يبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات ، إلا الكفر . وتأولوا قوله تعالى (٤ : ٣١) إن تجتنبوا كبائر ما ينهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده . كما قال تعالى (٤ : ٤٨) إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر ابن الباقلاني وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهنم بن صقوان فى القدر وفى الوعيد . وهؤلاء قصدوا مناقضة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء . وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ، وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها . بل

يكون عذابه مؤبداً . فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته - عندهم - لا يرحمه الله أبداً . بل يخلده في النار . يخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه في القدر . وناقضهم جهنم في هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جهنم . مع انتسابهم إلى أهل السنة والحديث ، واتباع السلف . وكذلك سلكوا في الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهنم وأتباعه . وجهنم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع في الأسماء والصفات . فعلا في نفي الأسماء والصفات . ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم . ووافقه المعتزلة في نفي الصفات دون الأسماء .

والكُلَّالِيَّة - ومن وافقهم من السالمية . ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية - وافقوه على نفي الصفات الاختيارية ، دون نفي أصل الصفات .

والكُرَّامِيَّة ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك . وهو امتناع دوام مالا يتناهى . وأنه يتمتع أن يكون الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وفعالاً لما يشاء إذا شاء . لامتناع حوادث لا أول لها . وهو - عن هذا الأصل ، الذي هو نفي وجود مالا يتناهى في المستقبل - قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا . لكن قال : بتناهي الحركات . فالمعتزلة في الصفات : مخانث الجهمية .

وأما الكُلَّالِيَّة : فيثبتون الصفات في الجملة . وكذلك الأشعريون . ولكنهم - كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري - : الجهمية الإناث . وهم مخانث المعتزلة . ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعري وغيره هذا . لأن قائله لم يعلم أن جهنم سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانثهم من بعض الوجوه . وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستاني يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة .
لأن الشهرستاني إنما يرى مناظرة أصحابه الأشعرية في الصفات ونحوها مع المعتزلة ،
بخلاف أئمة السنة والحديث . فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية . وهم المشهورون
عند السلف والأمة بنفي الصفات .

وأهل النفي للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية .
وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

ابتداء ظهور بدع المعتزلة والجهمية

وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن
عبيد . وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة . فيقول قتادة وغيره : أولئك
المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد
موت معاوية . ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - وغيرهما .
وابن عباس مات قبل ابن الزبير . وابن عمر مات عقب موته . وعقب ذلك
تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق . وأكثره : كان
بالشام والعراق بالبصرة . وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة - بعد موت الحسن ، وتسلّم في المنزلة بين المنزلتين ،
وقالوا بانفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد في النار ، وأن النار لا يخرج منها من
دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب - ضمو إلى ذلك القدر . فإن به يتم التغليظ
على أهل الذنوب . ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفي الصفات .

ذبح الجعد بن درهم

إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم . فضحى به خالد بن عبد الله القسري

وقال « أيها الناس ، ضحوا . تقبل الله ضحاياكم . فإني مضع بالجعد بن درهم . إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه . وهذا كان بالعراق .

ثم ظهر جَهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ . ومنها ظهر رأى جهم . ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق : أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك ، وأمثالهم - وقد تكلم في ذمهم - وابن الماجشون وغيرها وكذلك الأوزاعي وحماد بن زيد وغيرهم .

ابتداء المحنة

وإنما اشتهرت مقالاتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة . فإنهم في إمارة المأمون قوّوا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة . واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرسوس^(١) سنة ثمان عشرة ومائتين . وفيها مات . وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين . وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم في الكلام . فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبَيَّن أن لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحنهم إياهم : جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه . فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم في العامة ، وخافوا الفتنة . فأطلقوه .

مروجو الفتنة بخلق القرآن

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق القرآن من جميع الطوائف . فجمع له مثل أبي عيسى محمد بن عيسى بن غوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم

وأئمة السنة - كابن المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخارى وغيرهم - يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين - من أصحاب أحمد وغيرهم - يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسي - وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبي دؤاد ونحوهما - كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق . وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء ، يقولون : القرآن مخلوق . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفي الصفات . والثاني : الغلو في القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب . وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .

ما وافق فيه الأشعري جهما

وأما الأشعري : فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية . وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات - لا الإرادة ولا غيرها - فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصي . فعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب .

وأما الأشعري : فهو يثبت الصفات - كالإرادة - فاحتاج حينئذ أن يتكلم في الإرادة : هل هي المحبة أم لا ؟ وأن المعاصي : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصي يحبها الله ويرضاها ، كما يريد .

وذكر أبو المعالي الجويني : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصي .

وذكر الأشعري في الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم . أشك في بعضهم .

الهروى لا يثبت حكمة ولا سببا

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة . فصاروا يوافقون جهماً في مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفرين له في مسائل الصفات ، كأبي إسماعيل الأنصارى الهروى ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين في ذم الجهمية لفهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ في ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى المنعة والحديث . وربما كان يلغهم .

وقد قال له بعض الناس - بحضرة نظام الملك - أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس في السموات إله ، ولا في المصحف قرآن ، ولا في القبر نبي . وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو في مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال : أبلغ من الأشعرية . لا يثبت سبباً ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هي المشيئة . لأن العارف المحقق - عنده - هو من يصل إلى مقام الفناء . فيغنى عن جميع مراداته بمراد الحق . وجميع الكائنات مرادة له . وهذا هو الحكم عنده . و « الحسنه » و « السيئة » يفتقان في حظ العبد ، لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه . والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس . ومقام الفناء ليس فيه المشاهدة مراد الحق .

وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك في غير موضع . وبين لهم الجنيد الفرق الثاني . وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة - لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين

ما يحبه وما يبغضه . وبين ذلك لهم الجنيد ، كما قال في التوحيد : هو إفراد
الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد ، من أهل التصوف والمعرفة : كان قد اهتدى ونجا
وسعد .

ومن لم يسلك في القدر مسلكه ، بل سوى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق
بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق . فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ،
وهذه الأعمال . ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث : هو يحبها
كما يريد ، كما قاله الأشعري . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون . وهؤلاء يعذبون .

الأشعري أعقل من الصوفية

والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا - بالنسبة إلى المخلوق - كان أعقل منهم
فإن هؤلاء يدعون : أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا
وهذا .

وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب .

ما يلزم على مذهب الصوفية في الفناء

أما في حق العبد : فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث . وهذا محال
قطعا . وهم قد تمر عليهم أحوال يفتنون فيها عن أكثر الأشياء . أما الفناء عن
جميعها : فممتنع . فإنه لا بد أن يفرق كل حي بين ما يؤمله وبين ما يلذه . فيفرق
بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعي الإيمانى الرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه
وأعدائه . وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لابد للعبد
من أن يفرق . فإن لم يفرق بالفرق الشرعى - فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه

وبين ما يرضاه وما يسخطه - وإلا فرق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه . فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمر به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير في المعاصي . وآخرون في الفسوق . وآخرون في الكفر . حتى جاوزوا عبادة الأصنام .

أهل وحدة الوجود

ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود . وهم الذين خالفوا الجنييد ، وأئمة الدين في التوحيد . فلم يفرقوا بين القديم والحديث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود . كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع . وهو قول أهل الوحدة ، كابن عربي الحاتمي ، وابن سبعين ، والقونوي ، والتلساني ، والبلباني ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب في القدر بين أهل الكلام والمتصوفة ، الذين أوقعوا جهماً في هذا الأصل . وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه ، بخلاف الإرجاء . فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

الحكمة في الأفعال

فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ويمكن فعله ، من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هي محبته .

ولهذا تجدد من اتبعهم : غير معظم للأمر والنهي ، والوعد والوعيد . بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله ، أو عن بعضه ، أو متكلف لما يعتقد أنه يعلمه . فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاء فقد أحبه . وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها . بل غايته : أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور . بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله - كالأشعري - في أنه في نفس الأمر : لا حسن ولا سوء . وإنما الحسن

والقبح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً . وذلك فرق يعود إلى حظ العبد .
وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

قول المهروى : إن في الأمر الشرعى تلبيساً

فتارة : يقولون في امتثال الأمر والنهى : إنه من مقام التلبيس ، أو ما يشبه
هذا . كما يوجد في كلام أبي إسماعيل المهروى صاحب منازل السائرين .
وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أى العامة . كما يقوله الشيخ
المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

في كلام الشاذلى ما يستلزم تعطيل الأمر

ومن يسلك مسلكهم : غايته - إذا عظم الأمر والنهى - أن يقول ، كما نقل
عن الشاذلى : يكون الجمع في قلبك مشهوداً . والفرق على لسانك موجوداً .
ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل
الأمر والنهى . مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه
ونحو هذا ، مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذنب اجتراحاً السيئات ،
كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم . ويدعون بأدعية فيها اعتداء ،
كما يوجد في جواب الشاذلى . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

دعوى الصوفية أن الله يعطى الكفرة والفجرة كرامات

وآخرون - من عوام هؤلاء ، يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء
من يكون فاجراً ، بل كافراً . ويقولون : هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء .
ماهى متعلقة لا بصلاة ، ولا بصيام^(١) . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء .

(١) يقولون : إنها ميزة ذاتية ، تعطى القداسة الذاتية . لأنها لا تكون إلا
لأولاد المقدسين من الشيوخ الذين خلقوا من النور الأول . هذا دينهم وعقيدتهم
الوثنية المنفردة عن وحدة الوجود . وأن ربهم هو النواة التى انبثق وخرج منها
الكون . كخروج النخلة من النواة .

وتكون كراماتهم : من الأحوال الشيطانية ، التي يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى (٢ : ١٠١ ، ١٠٢) ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ماتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر . وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَذُو الْقُدَّةِ بِالْغُذَّةِ ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

المتبعون لما تتلو الشياطين من الكفر

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم - ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام - إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ماتلوه الشياطين . فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه . ولا يوالى من أمر القرآن موالاته . ولا يعادى من أمر القرآن بمعاداته . بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم ، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان . بإعانة الشياطين . وهي تحصل بما تتلوه الشياطين . ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشيطان . ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويقضه على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة . وهؤلاء كفار . كالذين قال الله تعالى فيهم (٤ : ٥١) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؟ يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت . ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

وهؤلاء ضاهتوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم (٢ : ١٠١ ، ١٠٢) ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا - الآية) . ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين

الفتنة بما يقع من الشعوذات والمخاريق

على يد أولياء الشيطان

وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف . حتى جوزوا عبادة الكواكب ، والأصنام . لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة . التي تعينهم عليها الشياطين . لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش . فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه . إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس . وتعظيمهم لهم . لرياسة ينالونها ، أو مال ينالونه . وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه . بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن . لأجل مصلحة الجمهور . كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

مضاهاة الروم والفرس

وقد دخل في رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهتوا به فارس والروم وغيرهم . فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار . والروم كانوا - قبل النصرانية - مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شبر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى . فإن أولئك ضاهتوا أهل الكتاب فيما بدّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهتوا من لا كتاب له من المجوس والمشرّكين ، فارس والروم ، ومن دخل في ذلك من الهند واليونان . ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفوس .

أصل الشر عبادة النفس والشيطان

فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكاً للرب ، وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول - إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه - « اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك . إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى (٤ : ٧٩) ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مع قوله تعالى (١٥ : ٤٢) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين) وقوله (٣٨ : ٨٥) لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) .

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية في فرعون ، ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله ، كالمسيح وغيره .

أصل الشرك في بني آدم

وأصل الشرك في بني آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين . فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان في بني آدم . وكان في قوم نوح . فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . يدعوهم إلى التوحيد . وينهاهم عن الشرك . كما قال تعالى (٧١ : ٢٣) وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم . ولا تذرنَّ وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً) وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح . فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب . كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره . إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهي نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .
ففى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة
دون ماسواه . وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه
مما شرع ، من واجب ومستحب - فلا بد أن يقعوا فى الشرك وغيره .
فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء . لا يحب شيئاً دون
شئ : فلا فرق عنده بين من يعبد وحده ، لا يشرك به شيئاً . وبين من يعبد معه
آلهة أخرى . وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة . ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل .
ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس فى نيل ما تريده بدون طاعة
الله ورسوله .

ولى الصوفية له صفات الرب سبحانه

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم
الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق .
وجوزوا الخوارق مطلقاً . وحكوا فى ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالاً منكراً .
فقال بعضهم : إن الولي يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على
الولي فعل ممكن . كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .
وهذا قاله ابن عربى والذين اتبعوه . قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس
عندهم ما يقال : إنه غير مقدور عليه للولي ، حتى ولا الجمع بين الضدين ، ولا غير
ذلك . وزاد ابن عربى : أن الولي لا يعزب عن قدرته شئ من الممكنات . والذى
لا يعزب عن قدرته شئ من الممكنات : هو الله وحده .
فهذا تصريح منهم : بأن الولي مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل ما يعلمه الله . ويقدر على كل ما يقدر الله عليه .
وادعوا أن هذا كان للنبي ، ثم انتقل إلى الحسن بن على ، ثم من الحسن إلى
ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبى الحسن الشاذلى ، ثم إلى ابنه .

خاطبني بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .
وحدثني الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .
وحدثني بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود
في مكة ، فدخلوا الكعبة . فقال له ابن هود - وأشار إلى وسط الكعبة - هذا
مويط النور الأول . وقال له : لو قال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك
إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : ففقت شعري من هذا الكلام وانخنست -
أو كما قال .

دعوى سهل التستري قدرة الولي على منع قيام الساعة
ومن الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة .
قيل له في ذلك . فقال : هاه ، إن بلدكم هذا من لو سألو الله أن يزيل الجبال عن
أماكنها لأزالها . ولو سألوه : أن لا يقيم القيامة لما أقامها . لكنهم يعلمون مواضع
رضاه ، فلا يسألونه إلا ما يحب .
وهذه الحكاية : إما كذب على سهل - وهو الذي نختار أن يكون حقاً -
أو تكون غلطاً منه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك : أن ما أخبر الله أن
يكون فلا بد أن يكون . ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون : لم
يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وغير ذلك .
بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون .
لكن الدعاء سبب يقضى الله به ما علم الله : أنه سيكون بهذا السبب ، كما
يقضى بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

من دعا من الأنبياء فلم يستجب له

وقد سأل الله تعالى - من هو أفضل من كل من في البصرة بكثير - ما هو دون
هذا فلم يجابوا . لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة
والسلام أن يغفر لأبيه . وكما سأله نوح عليه السلام سألته نجاة ابنه . فقيل له (١١) :

٤٦ يأنوح ، إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح . فلا تسألني ما ليس لك به علم) .
وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له في شأن عمه أبي طالب
(١١٣ : ٩) ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى
وقيل له في المنافقين (٦٣ : ٦) سواء عليهم أستغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن
يغفر الله لهم) وقد قال تعالى عموماً (٢٥٥ : ٢) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟
وقال (٢٢ : ٣٤) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فمن هذا الذي لو سأل الله
ما يشاؤه هو أعطاه إياه ؟ !

وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت
العرش ، ويمجد ربه ، ويثني عليه . فيقال له : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقُلْ
يُسْمِع . وَسَلْ تُعْطَ . واشفع تُشَفَّع . قال : فَيَحْذُلِي حَدًّا . فأدخلهم الجنة » وقد
قال تعالى (٧ : ٥٥) ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين) .

الاعتداء في الدعاء

وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه
لا بد أن يفعله ، أو أن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن
نفسه (٢ : ١٨٦) وإذا سألك عبادي عني ؟ فإني قريب . أجيب دعوة الداعي
إذا دعان) وقال (٤٠ : ٦٠) وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين
يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من داع يدعو الله
بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم : إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث :
إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلاً . وإما أن يصرف عنه
من الشر مثلاً » .

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله . وهذا غاية
الإجابة . فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً . أو مفسداً للداعي أو لغيره . والداعي

جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه . والرب قريب مجيب . وهو أرحم بعباده من
الوالدة بولدها . والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد
إعطائه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له . فإنه يعطيه
من ماله نظيره . والله المثل الأعلى .

وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم - لما طلبت منه طائفة من بني عمه أن يوليهم
ولاية لا تصلح لهم - فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل
بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .
وقد روى في الحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

فصل

في الشكر والتوحيد والتوكل والاستغفار

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله « ما أصابك من حسنة فمن الله .
وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات -
والحسنيات تدخل فيها كل نعمة - إلا من الله . وأن يعلم أنها من الله وحده ،
فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره . ويعلم أنه لا إله إلا هو . كما قال
تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال (وإذا مسكم الضر فإليه
تجأرون) وهذا إخبار عن حالهم ، والجوار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا أصابه الضر . وأما في حال النعمة : فهو ساكن ، إما
شاكراً وإما كفوراً (٦٦ : ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف
الضر عنكم إذا فريق منكم يرمي بكم يمشركون) .

وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع ، يدم من يشرك به بعد كشف البلاء
عنه ، وإسباغ النماء عليه ، فبضيف العمد - بعد ذلك - الإنعام إلى غيره . ويعبد
غيره تعالى . ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى (٣٠ : ٣٣ ، ٣٤ وإذا

مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم
بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون) وقال تعالى
(٦ : ٦٣ ، ٦٤ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخُفْيةً
لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل
كرب . ثم أتم تشركون) وقال تعالى (٣٩ : ٨ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه
منيباً إليه . ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله
أنداداً ليصل عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلاً . إنك من أصحاب النار) .

وقوله « نسي ما كان يدعو إليه » أى نسي الضر الذى كان يدعو الله لدفعه .
إليه ، كما قال فى سورة الأنعام (٦ : ٤٠ ، ٤١ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب
الله ، أو أتتكم الساعة : أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون .
فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . وتنسون ما تشركون) .

فدُم الله سبحانه حز بين : حز بآلا يدعونه فى الضراء . ولا يتوبون إليه . وحز بآ
يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه . فإذا كشف الضر عنهم : أعرضوا عنه ،
وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان - كالمعطلة ، والمشركة - حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوا
الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال (٦ : ٤٢ ، ٤٣ ولقد أرسلنا إلى
أمم من قبلك . فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا
تضرعوا ؟ ولكن قَسَتْ قلوبهم . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقال تعالى
(٢٣ : ٧٦ ولقد أخذناهم بالعذاب . فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وقال
تعالى (٩ : ١٢٦ أولايرون : أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم
لا يتوبون . ولا هم يذكرون) وقال تعالى (٣٢ : ٢١ ولنذيقهم من العذاب الأدنى
دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء .
ويتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى (١٠ : ١٢ وإذا

مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مرّ ، كأن لم يدعنا إلى ضره . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (وقال تعالى (٥١:٤١) وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجنبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) وقال تعالى (١٧ : ٦٧) وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم . وكان الإنسان كفورا) وقال في المشركين ما تقدم « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون » .

أهل الصبر والشكر

والممدوح : هو القسم الثالث . وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه . ويثبتون على عبادته ، والتوبة إليه في حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء . وهم أهل الصبر والشكر ، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام . فقال تعالى (٢١ : ٨٧ ، ٨٨) وإذا النون إذ ذهب مغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى في الظلمات : أن لا إله إلا أنت ، سبحانك ! إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له . ونجينا من الغم . وكذلك نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (وقال تعالى (٣٨ : ٣٤ ، ٣٥) ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسدا . ثم أناب . قال : رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي . إنك أنت الوهاب) وقال تعالى (٣٨ : ٢١ - ٢٥) وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوّروا الحراب ؟ إذ دخلوا على داود . ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بنى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ، ولا تُشطط . واهدنا سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة . ولي نعجة واحدة ، فقال : أكِفْلَيْنِيهَا . وعَرَّني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وقليل ما هم - وظن داود أننا فتنّاه . فاستغفر ربه . وخرّ راكعا وأناب . ففقرنا له ذلك . وإن له عندنا لزُفَى وحسن مآب (١٧ - مجموعة

وقال تعالى عن آدم وحواء (٧: ٢٢، ٢٣) فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سَوَاتِمَهُمَا . وطفقا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ . وناداهما ربهما : ألمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ؟ وأَقْلَلْ لَكُمَا : إن الشيطان لكم عدو مبين ؟ قالوا ربنا ، ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال (٢: ٣٧) فتلقي آدم من ربه كلمات . فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم .

تفسير آية « وكأين من نبي - الخ »

وقال تعالى عن المؤمنين الذين قُتِلَ نبيهم (٣: ١٤٦ - ١٤٨) وكأين من نبي قُتِلَ^(١) معه رِيبٌ كَثِيرٌ . فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله . وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا . وثبت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ . والله يحب المحسنين .

وقوله « قتل » أى النبي قُتِلَ . هذا أصح القولين . وقوله « معه رِيبٌ كَثِيرٌ » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي - صفة بعد صفة - أى كم من نبي معه ريبون كثير قُتِلَ ، ولم يقتلوا معه . فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ريبون كثير ، وقتل في الجملة . وأولئك الريبون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

و « الريبون » الجموع الكثيرة . وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذى يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : « إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قُتِلَ : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين » وهى التى تلاها أبو بكر الصديق رضى الله

(١) قراءة حفص « قاتل » وفى قراءة غيره « قتل » بالبناء للمفعول و « قتل »

عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس - المؤمنين والكافرين - وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقى يقوم دينه . وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بنى إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال . بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير . فإوّهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا . وما استكانوا . والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا . ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى (٤٩ : ١٥) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون) وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين . سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من الثبوت ، وما يعطيهم من عنده من النصر . فإنه هو الناصر وحده . وما النصر إلا من عند الله . وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة (٨ : ١٠) وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم) وقال تعالى (٤٨ : ٣) فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين) وهذا مبسوط في موضع آخر . والمقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان - وإن كانت بقضاء الله وقدره - وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لا يتوكل إلا عليه وحده . فلا يأتي

بالحسنات إلا هو . فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

جمع النبي صلى الله عليه وسلم كل أمور التوحيد في دعائه

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة . كما ثبت عنه في الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد . ثم يقول بعد ذلك « اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحديته : لتوحيد الربوبية ، خلقاً ، وقدراً ، وبداية ، وهداية . هو المعطى المانع . لا مانع لما أعطى . ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية - شرعاً وأمرأ ، ونهياً - وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبخنا ورياسة في الظاهر أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال « لا ينفعه منك » ولم يقل « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أؤم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك في الدنيا وهم من السعداء . فقد يظن ذو الجد - الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده - أنه كذلك . فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضمّن « ينفع » معنى « ينجى ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب . بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك . فلا ينجيه ولا يخلصه .

معنى « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله (١١ : ١٢٣) فاعبده وتوكل عليه) وقوله (١١ : ٨٨) عليه توكلت وإليه أنيب) وقوله (٧٣ : ٨ ، ٩) واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو . فاتخذوه وكيلاً) .

فقوله « لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يُسأل ويُدعى ، ويُتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه . كما يحتج به فى القرآن على المشركين . فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا يشركون بالله . فيجعلون له أنداداً ، يحبونهم كحب الله . ويقولون : إنهم شفعاؤنا عنده ، وإنهم يتقربون بهم إليه . فيتخذونهم شفعاء وقرباناً ، كما قال تعالى (١٠ : ١٨) ويعبدن من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال تعالى (٣٩ : ٣) والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (٤٦ : ٢٧ ، ٢٨) ولقد أهلكنا ما نعبدهم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرّبانا آلهة ؟ بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفكرون) . وهذا التوحيد : هو عبادة الله وحده لا شريك له . وأن لا نعبد إلا بما أحبه ومارضيه . وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما .

وهو يتضمن : أن يحب الله حباً لا يماثله ولا يساويه فيه غيره ، بل يقتضى : أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه .

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه ، فكيف بربه سبحانه وتعالى ؟ .

وفي صحيح البخارى أن عمر قال « يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلى من كل شيء ، إلا من نفسى . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق ، إنك لأحب إلى من نفسى . قال : الآن يا عمر » . وقد قال تعالى (٣٣ : ٦) النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال تعالى (٩ : ٢٤) قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتركبوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

توحيد الإلهية

فهذا التوحيد - توحيد الإلهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحذور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لاخالق ولا رازق ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضى : أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به ، كما قال تعالى فى النوعين (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال (١١ : ١٢٣) فاعبدوه وتوكل عليه) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب فى الأولى والآخرة . فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين . فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .

توحيد الربوبية

أما توحيد الربوبية : فقد أقر به المشركون ، وكانوا يعبدون مع الله غيره ،

ويعجبونهم كما يعجبونه . فكان ذلك التوحيد - الذى هو توحيد الربوبية - حجة عليهم . فإذا كان الله هو رب كل شئ ومليكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟!

رد شفاعة المشركين بأوليائهم

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله (٢ : ٢٥٥) من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) فلا يشفع من له شفاعة - من الملائكة والنبیین - إلا بإذنه . وأما قبورهم وما نصب عليها من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم - التى مُثِّلَتْ على صورهم ، مجسدة أو مرقومة - فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم : فهذا باطل عقلاً وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التى عملت للكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

بحث فى حقيقة « الشفاعة »

وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقى الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق . فإن المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه ، أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولا بد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهيته منه ، وإما لحبته إياه ، وإما للمعاوضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتسكون شفاعة الشفيع : هى التى حركت إرادة المشفوع إليه ، وجعلته يريد الشفاعة ، بعد أن لم يكن يريد لها . كأمر الأمر الذى يؤثر فى المأمور . فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن يريد لفعله . وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محرّكاً له إلى فعل ما سأل .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب ، فهو أيضاً قد شَفَعَ المشفوع إليه . فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلاً للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .
والله تعالى وتبر ، لا يَشْفَعُهُ أحد . فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . فالأمر كله إليه وحده . فلا شريك له بوجه . ولهذا ذكر سبحانه نفى ذلك في آية الكرسي ، التي فيها تقرير التوحيد . فقال (٢ : ٢٥٥) له مافى السموات ومافى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . إذا سجد وحمد ربه . يقال له « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطى ، واشفع تشفع . فيحُدُّ له حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال (٣ : ١٥٤) قل : إن الأمر كله لله) وقال لرسوله (٣ : ١٢٨) ليس لك من الأمر شيء) وقال (٧ : ٥٤) ألا له الخلق والأمر) .

قبول شفاعة الشفيع إكرام من الله له

فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه . فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفيع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه . كما يؤثر الخلق في المخلوق . فإنه سبحانه هو الذى جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد . فهو الذى وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها . وهو الذى وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه . وهو الذى وفقه للدعاء ، ثم أجابه . فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات . بل هو سبحانه الذى جعل ما يفعله سبباً لما يفعله . وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولا يكون شيء إلا بمشيئته . وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية . فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلاً لما لم يكن فاعلاً له . فبدعائه جعله مجيئاً له ، وبتوبته جعله قابلاً للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلاً للشفاعة .

معنى « إذن الله »

وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه . فإن « الإذن » نوعان : إذن بمعنى المشيئة والخلق ، بمعنى الإباحة والإجازة . فمن الأول : قوله فى السحر (٢ : ١٠٢) وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته . وإلا فهو لم يبيع السحر . والقدرية تنكر هذا « الإذن » وحقيقة قولهم : إن السحر يضر بدون إذن الله وكذلك قوله (٣ : ١٦٦) وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والمزيلة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله (٣٣ : ٤٥ ، ٤٦) إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه) وقوله (٥٩ : ٥) ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها . فبإذن الله) فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والخرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشئها لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه . لا هذا الإذن ولا هذا الإذن . فإنه لم يبيح ذلك باتفاق المسلمين . وعندهم : أنه لم يشأ ولم يخلقه . بل كان بدون مشيئته وخلقته .

والمشركون المقرون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، وإن لم يأذن لهم إباحتاً وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر — مثل كثير من النصارى — يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولا شرعى فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم . لكن بإباحته .

والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاءه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ »

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، وإن كان خالقاً لفعله — كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبی صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته . وقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين . فإنه لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلة فى ذلك ، كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية . وهؤلاء قد شفّعوا بغير إذن شرعى ؟

الشفاعة التامة المقبولة

قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى المقبولة ، كما فى قول المصلى « سمع الله لمن حمده » أى استجاب له . وكما فى قوله تعالى (٣ : ٢) هُدى

للمتقين) وقوله (٧٩ : ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (٥٠ : ٤٥ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ونحو ذلك .

فإن الهدى ، والإيذار ، والتذكير ، والتعليم : لا بد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود . وإلا قيل : علمته فلم يتعلم . كما قيل (٤١ : ١٧) وأما نمود : فهديناكم . فاستحبوا العمى على الهدى) فكذلك الشفاعة .

مقصود الشفاعة

فالشفاعة : مقصودها قبول المشفوع إليه . وهي الشفاعة التامة . فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه . وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها ، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها . كما قال نوح (١١ : ٤٧) رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم . وإلا تغفر لي وترحني أكن من الخاسرين) وكما نهى الله النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين . وقال له (٩ : ٨٤) ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون) وقال له (٦٣ : ٦) سوا عليهم ، أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم) . ولهذا قال على لسان المشركين (٣٦ : ١٠٠ ، ١٠١) فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم) .

فالشفاعة المطلوبة : هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته . وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً . فلا بد أن يأذن فيها . ولا بد أن يحمل العبد شافعاً . فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما في الدعوى : هو الذي أمره الله ، وهو الذي يجعل الدعوى داعياً فالأمر كله لله ، خلقاً وأمرأ . كما قال (إلا له الخلق والأمر) .

وقد روى في حديث - ذكره ابن أبي حاتم وغيره - أنه قال « فمن يثق به ، فليدعه » أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر .

الشفاعة المنفية

ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هى الشفاعة المطلقة ، وهى المقصود بالشفاعة وهى المقبولة ، بخلاف المردودة . فإن أحداً لا يريد لها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه . ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها . والشفاعة المقبولة : هى النافعة . بين ذلك فى مثل قوله (٣٤ : ٢٢) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له (وقوله (٢٠ : ١٠٩) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) فنفى الشفاعة المطلقة . وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له : وهو الإذن الشرعى . بمعنى : أباح له ذلك . وأجازه . كما قال تعالى (٢٢ : ٣٩) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وقوله (٣٣ : ٥٣) لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) وقوله (٢٤ : ٥٨) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) ونحو ذلك . وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له . فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد . بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم فى الشفاعة فيه . قال تعالى (٢٠ : ١٠٨ ، ١٠٩) يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وفيه قولان :

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن . فهو الذى تنفعه الشفاعة . وهذا هو الذى يذكره طائفة من المفسرين . لا يذكرون غيره . لأنه لم يقل « لا تنفع إلا من أذن له » ولا قال « لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال (لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له) فهى لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى (٣٤ : ٢٢) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

ولا يقال : لا تنفع إلا لشفيع مأذون له . بل لو أريد هذا ، ل قيل : لا تنفع

الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذى تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فُزَّعَ عن قلوبهم » لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى المذكورين فى قوله « وما لهم فيهما من شريك . وماله منهم من ظهير » ثم قال « ولا تنفع الشفاعة عنده » ثم بين أن هذا منتفٍ « حتى إذا فُزَّعَ عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يُفَزَّعَ عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟ .

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع . فهذا الإذن هو الإذن المطلق ، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط . فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له . إذ قد يأذن له إذناً خاصاً . وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين . وكذلك قال السلف فى هذه الآية .

قال قتادة فى قوله « ٢٠ : ١٠٩ » إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا « قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذى قال الله تعالى (١٧ : ٧٩ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له ورضى له قولا » إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم فى بعض . قال البغوى « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوى : فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين فى قوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » وقدم طائفة هناك : أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ما قدموه هنا . منهم البغوى . فإنه لم يذكر هنا فى الاستثناء إلا المشفوع له . وقال هناك : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » فى الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ، حيث قالوا

(١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

وكذلك ذكروا القولين في قوله (٤٣ : ٨٦ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق) وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً » و « الشفاعة » مصدر شفع شفاعاً . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويمثله الذى يسمى لفظه « المفعول به » تارة ، كما يقال : أعجبني دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشيء من علمه) وقوله (٤ : ١٦٥ أنزله بعلمه) وقوله (١١ : ١٤ إنما أنزل بعلم الله) ونحو ذلك .

والثاني : كقوله (٣١ : ٣٤ إن الله عنده علم الساعة) فالساعة هنا : معلومة ، لا عالة . وقوله حين قال فرعون (٢٠ : ٥١ فما بال القرون الأولى ؟) قال موسى (٢٠ : ٥٢ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) ومثل هذا كثير . فالشفاعة مصدر ، لا بد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال « يومئذ لا تنفع الشفاعة » نفي النوعين : شفاعة الشفعاء . والشفاعة للمذنبين . فقوله « إلا من أذن له الرحمن » يقتضون النوعين : من أذن له الرحمن ورضى له قولاً من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولاً من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب . وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لا تنفع لاشافعاً ولا مشفوعاً له (٧٨ : ٣٨ إلا من أذن له

الرحمن وقال : صواباً) فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة . وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه . كقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) ثم قال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صواباً . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لا ينفع الزرع إلا في وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال « إلا من أذن له الرحمن » والاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يُستثنى منه هذا . وإنما قال « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » فإذا لم يكن في الكلام حذف ، كان المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة . ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف - تقديره : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن - كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم ، لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله (٢ : ١٧٧) ولكن البرّ من آمن بالله (أى من يؤمن . و (٢ : ١٧١) مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق (أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناعق ، أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به . والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الكلام : إيجازه ، دون الإطناب فيه .

وقوله « يؤمنون لا تنفع الشفاعة » إذا كان من هذا الباب ، لم يمتنع الشافع تنفعه الشفاعة . وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » من هؤلاء . وهؤلاء .

اسكن قد يقال : التقدير : لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه . فيكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو لا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء . فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة . وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » .

ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمداً صلى الله عليه وسلم : هو الشفاعة التي يختص بها . وهي المقام المحمود ، الذي يحمده به الأولون والآخرون . وعلى هذا لا تحتاج الآية إلى حذف ، بل يكون معناها : يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

ولذلك جاء في الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يا بني عبد مناف ، لا أملك لكم من الله من شيء . يا صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله من شيء . يا عباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء » . وفي الصحيح أيضاً « لا ألفين أحداً يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تحفّق . فيقول : أغنني ، أغنني . فأقول : قد أبلغتكم . لا أملك لك من الله من شيء » .

فيعلم من هذا : أن قوله « ولا يملكون من دونه الشفاعة » و « لا يملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله في الآية « لا يملكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم « لا أملك لكم من الله من شيء » وهو كقول إبراهيم لأبيه (٦٠ : ٤ وما أملك لك من الله من شيء) .

وهذه الآية تشبه قوله تعالى (٣٧ : ٣٨) رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن . لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال صواباً) فإن هذا مثل قوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة

إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً « في الموضعين : اشترط إذنه . فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضى الله قوله . فإن الله إنما يرضى بالصواب .

لا يملك أحد من الخلق من دون الله شفاعاة ولا غيرها

وقد ذكروا في تلك الآية قولين .

أحدهما : أنه الشفاعاة أيضاً ، كما قال ابن السائب : لا يملكون شفاعاة إلا بإذنه والثاني : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه . وهو من أعلم - أو أعلم - التابعين بالتفسير .

قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضتُ المصحف على ابن عباس : أفقه عند كل آية وأسأله عنها . وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعاة » أيضاً .

وفي قوله « لا يملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ الخلق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه في قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة » أن هذا عام مطلق . فإن أحداً - ممن يدعى من دونه - لا يملك الشفاعاة بحال . ولكن الله إذا أذن لهم شفعا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم . وكذلك قوله « لا يملكون منه خطاباً » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم . قال ابن عطية : قوله « لا يملكون » الضمير للكفار . أى لا يملكون - من إفضاله وإكاله - أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض . والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال في آية أخرى

(٢٠: ١٠٨ وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً) وفي حديث التجلّي الذي في الصحيح - لما ذكر مرورهم على الصراط - قال صلى الله عليه وسلم « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ » فهذا في وقت المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟ .

وقد طُلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم ، وكل يقول « إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإني فعلت كذا وكذا ، نفسى ، نفسى ، نفسى » فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة ، فكيف بغيرهم ؟ .

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين . فقال (٧٨ : ٣١ - ٣٨) إن للمتقين مغازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (ثم قال) يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال : صوابا (فقد أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطابا » والعرب تقول : ما أملك من أمر فلان ، أو من فلان شيئاً : أى لا أقدر من أمره على شيء . وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ، ولو بالسؤال .

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا انخطاب . فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى (٦٠ : ٤) إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك . وما أملك لك من الله من شيء) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً في الدنيا ، وعملاً به . رواه - والذي قبله - عبد بن حميد . وروى عن عكرمة « وقال صواباً » قال : الصواب قول لا إله إلا الله .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى : مَنْ أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .
وقوله فى سورة طه « لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا »
فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هى الشفاعة المطلقه . وهى الشفاعة
فى الحسنات وفى دخول الجنة ، كما فى الصحيحين « أن الناس يهتمون يوم القيامة .
فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة
للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب
الأيمن » فهذه شفاعة فى أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان
بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » يدخل
فيها الشفاعة فى أهل الموقف عموماً ، وفى أهل الجنة ، وفى المستحقين للعذاب .
وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال « وقال صواباً » وقال
« ورضى له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضي »
لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح . لكن نفس القول مرضى . فقد قال
الله (٣٥ : ١٠) إليه يصعد الكلم الطيب) .

وقد ذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهما فى قوله « ولا يملك الذين
يدعون من دون الشفاعة إلا من شهدنا بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن
المستثنى هو الشافع . ومحل « من » الرفع . والثانى : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : فى معنى الآية قولان . أحدهما : أنه أراد بـ « الذين يدعون
من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال « إلا من شهد
بالحق » وهو شهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم .
قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثانى : أن المراد بـ « الذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبادهم

المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهي كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيراً والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة . فإنهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة . وعلى هذا تكون « من » في محل رفع . وقيل « من » في محل خفض . وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة . يعني : أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق . قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد - على شرط الصحيح - عن مجاهد قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزير والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ^(١)

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضاً ، كما قاله البغوي . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعت ، وشفعت له ، كما يقال : نصحت له ، ونصحت له . و « شفع » أى صار شافعاً للطالب . أى لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق هم يعلمون » أن الله ربههم .

وروى بإسناده عن قتادة « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير . أى إنهم قد عبدوا من دون الله ، ولهم شفاعاة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . لكن التحقيق في تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً . لا يستثنى من ذلك أحد عند الله : فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد . ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال (١) يياض بالأصل قدر أربع كلمات .

« ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دُعى من دون الله لا يملك الشفاعة البتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .
وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم لم يعبد كما عبد المسيح^(١) . وهو - مع هذا - له شفاعة ، ليست لغيره . فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دُعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلاً ، فإن معنى كلامه : أن من دُعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق . وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم . ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد . وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه . وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

تحقيق معنى « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة »

وأيضاً فقله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل في ذلك الأصنام . فإنهم كانوا يقولون : هم يشفعون لنا . قال

(١) بل عبد كما عبد المسيح سواء . فقد أطرى - على لسان البوصيري وغيره من الشعراء المشركين - كما أطرى عيسى . وقيل عنه : إنه النور الأول الذي انبثق من الله ، كما قيل عن عيسى سواء . وقيل : إن الحقيقة المحمدية هي الدرجة الثانية في تعين الحقيقة الإلهية ، كما قال النصارى في عيسى . وأقيمت على قبره القبة الخضراء تقدس وتبرك بها ، كما تبرك النصارى بآثار عيسى والقسس سواء . وهو صلى الله عليه وسلم - وبراؤه الله - يدعى ويستغاث به من دون الله ، كما قال البوصيري :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

والذين روجوا عبادة البشر من الأنبياء والأولياء - عيسى ومن قبل عيسى - هم الصوفية الذين روجوا وروجون الشرك بجميع ألوانه في كل وقت إلى يوم القيامة وهم يزخرفونه للعامة بنسبته إلى الأنبياء والأولياء . محادة للرسول ، واتباعاً لغير سبيل المؤمنين .

تعالى (١٠ : ١٨) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبثون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ (فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم . وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعاة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين . والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى (٥٣ : ٢٦) وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى (٢٦ : ٢٦) — ٢٨ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول . وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب . فعلم : أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

تحقيق معنى « من دونه »

وأيضاً فإن في القرآن : إذا نفى الشفاعاة من دونه : نفاها مطلقاً . فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلاً بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعاة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا . وهذا أظهر . لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة » فأخر « الشفاعاة » وقدم « من دونه » .

ومثل هذا كثير في القرآن « يدعون من دون الله » و « يعبدون من دون الله » كقوله (١٠ : ١٨) ويعبدون دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم (وقوله (١٠ : ١٠٦) ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) .

بخلاف ما إذا قيل : لا يملك الذين يدعون الشفاعاة من دونه . فإن هذا لا نظير له في القرآن . واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون

الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك . لا يقال فى هذا المعنى « من دونه »
فإن الشفاعة هى من عنده . فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ،
وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقاً . دخل فيه الرب تعالى . فإنهم
كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره . ولهذا قال (٢٥ : ٦٨) والذين لا يدعون
مع الله إلهاً آخر) .

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه . وهذا
أجود من الذى قبله . لكن يرد عليه ما يرد على الأول .

لا يملك أحد من دون الله الشفاعة

ومما يضعفهما : أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها . بل قال « لا يملك
الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب .
وأن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة . فإن المالك للشيء : هو الذى
يتصرف فيه بمشيئته وقدرته . والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه . فلا يملك
أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال فى هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك
فى الفعل . فيقال (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) .

وأما فى الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها . فلا يملك مخلوق الشفاعة
بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها . بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن
يكون خالقاً ورباً . وهذا كما قال (٣٤ : ٢٢) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله
لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . وما لهم فيهما من شرك . وما له
منهم من ظهير) فنفى الملك مطلقاً . ثم قال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)
فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة . بل هو سبحانه
له الملك وله الحمد . لا شريك له فى الملك . قال تعالى (٢٥ : ١ - ٣) تبارك الذى
ل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض .

ولم يتخذ ولدًا . ولم يكن له شريك في الملك . وخلق كل شيء فقدره تقديرا)
ولهذا - لما نفى الشفعاء من دونه - نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء . وإنما يقع
الاستثناء : إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى (٦ : ٥١) وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ
يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ . ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) وكما قال تعالى
(٦ : ٧٠) وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلْ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ . ليس لها من دون الله ولي
ولا شفيع) وكما قال تعالى (٣٢ : ٤) مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) فلما قال
« من دونه » نفى الشفاعة مطلقاً . وإذا ذكر « يأذنه » لم يقل « من دونه »
كقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا يأذنه ؟) وقوله (١٠ : ٣) مامن شفيع إلا
من بعد إذنه) .

معنى قوله في وصف القرآن « متشابهاً ، ومثاني »

فن تدبر القرآن : تبين له أنه كما قال تعالى (٣٩ : ٢٣) الله نزل أحسن
الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني) يشبه بعضه بعضاً . ويصدق بعضه بعضاً . ليس
بمختلف ولا بمتناقض ٤ : ٨٢ . ولو كان من عند غير الله : لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً) .

وهو « مثاني » يُذَنِّي الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة . وهو « المتشابه » وإما مماثلة . وهي : الأصناف
والأقسام والأنواع . وهي « المثاني » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما
في قوله تعالى (٦٧ : ٤) ارجع البصر كرتين) يراد به : مطلق العدد ، كما تقول :
قلت له مرة بعد مرة . تريد : جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا .
وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه « جعل يقول بين السجدين : رب اغفر لي . رب اغفر لي » لم يرد :

أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الفالطين . بل يريد : أنه جعل
يثنى هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم « إنه ركع
نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم . سبحان ربى العظيم »
وذكر « أنه سجد نحواً من قيامه ، يقول فى سجوده : رب اغفر لى . رب اغفر لى » .
وقد صرح فى الحديث الصحيح « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة
والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان يقول : سبحان
ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى »
فلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، لا الاختصار على مرتين .
فإن « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ ،
لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد . والتعديد : يكون للأقسام المختلفة .
وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد فى كل خطاب .

ف « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « الثانى » فى الأنواع . وتكون التثنية
فى المتشابه ، أى هذا المعنى قد تثنى فى القرآن لفوائد آخر .

ف « الثانى » تم هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى « السبع الثانى » لتضمنها
هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

لا يملك أحد من الخلق الشفاعة ألبتة

والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين من يدعون من دونه الشفاعة »
قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة . ثم
استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون فى
المعنى المشترك بين المذكورين . فلما تبنى ملكهم الشفاعة ، بقيت الشفاعة بلا مالك لها
كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد ؟ فقال : نعم « من
شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون .
فالملائكة والأنبياء والصالحون - وإن كانوا لا يملكون الشفاعة - لكن إذا
أذن الرب لهم شفّعوا . وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون
أن لا إله إلا الله . فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة
تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل يسأل في قبره ؟
« ما تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري . سمعت الناس
يقولون شيئاً فقلته » فلهذا قال « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .
وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لا إله إلا الله » يعنى : خالصاً
من قلبه .

والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون
في أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت في صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه
وسلم « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننتُ
أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيتُ من حرصك على
الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال « لا إله إلا الله » خالصاً من
قبل نفسه » .

فبين أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من
غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله
لنفسه بذلك وملائكته وأولو العلم (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو ،
والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

فإذا شهدوا - وهم يعلمون - كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعا لهم .

فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم في بعض ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة . كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال - في الحديث الطويل ، حديث التجلي والشفاعة - « حتى إذا خلص المؤمنون من النار . فوالذي نفسى بيده ، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرقم . فتحرم صورهم على النار - وذكر تمام الحديث . » .
وسبب نزول الآية - على ما ذكره - مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا « إن كان ما يقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة . فهم أحق بالشفاعة من محمد . فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة . فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذي يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يُشَفِّعُ فيه .

فالذي تنال به الشفاعة : هي الشهادة بالحق . وهي شهادة أن لا إله إلا الله . لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

من تشفع بغير الله

فمن والى أحداً من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .
فهذا القول والعبادة الذي يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة .

فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين - ليشفعوا لهم - كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذي به طلبوا شفاعتهم : به حُرِّموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم . لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

عبادة المشركين للموتى بزعم أنهم يشفعون لهم

وكثير من أهل الضلال : يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التي فيها شرك ، أو هي شرك خالص ، كما ظن ذلك المشركون الأولون . وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المتسبين إلى الإسلام . الذين يدعون غيره الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعا لهم . قال تعالى (١٧ : ٥٦ ، ٥٧ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته . ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة . فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة . وهذا لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم . ثم قال « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب . ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » فبين : أن هؤلاء المزعمين ، الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أتم مسلمون ؟) .

ضلال الناس في أنواع الشفاعة

وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت في غير هذا الموضع . فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره . ويقولون : من كان أكثر صلاة على

النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظنا بشخص ، وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

وهذا غلط . بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : تتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً - من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه - كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة : سببها توحيد الله ، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة . فإن الشفاعة : من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه . وهو الذى يأذن للشافع . وهو الذى يقبل شفاعته فى المشفوع له .

الشفاعة سبب من أسباب الرحمة

وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده . وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص « لا إله إلا الله » علماً وعقيدة ، وعملاً وبراءة ، وموالاتة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون - الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، فحقت موازينهم ، فاستحقوا النار - : من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه . ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود . ثم يخرج الله من النار بالشفاعة . ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فبين أن مدار الأمر كله : على تحقيق كلمة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لأعلى الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهليون . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

ما كان يقول صلى الله عليه وسلم في الرفع من الركوع

والمقصود هنا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين « الحمد » الذي هو رأس الشكر ، وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد . أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد . وكلنا لك - : لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول « اللهم طهرني بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا رفع رأسه من الركوع - قال : اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا رفع رأسه من الركوع - قال : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم في صحيحه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم لك الحمد » وقال « وملء الأرض ، وملء ما بينهما » .

ولم يذكر في بعض الروايات . لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما : العلو والسفل مطلقاً . فيدخل في ذلك الهواء وغيره . فإنه عال بالنسبة إلى ماتحته ، وسافل بالنسبة إلى ما فوقه . فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء . وكذا قال في القرآن (٥٧ : ٤) هو الذي خلق السموات والأرض في ستة

أيام ثم استوى على العرش) ولم يقل « وما بينهما » كما يقول (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) .

فتارة يذكر قوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام . وتارة لا يذكره . وهو مراد . فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ « السموات والأرض » ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تارة يقول « ملء السموات وملء الأرض » ولا يقول « وما بينهما » وتارة يقول « وما بينهما » وفيها كلها « وملء ما شئت من شئ بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ما قال العبد » إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب » .

فى الحمد رأس الشكر والاستغفار

فى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد بإزاء النعمة . والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

فى سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وفى حديث أبى سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما فى أم القرآن . فأولها : توحيد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها : دعاء . وكما فى قوله (٤٠ : ٦٥ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين) .

وفى حديث الموطأ « أفضل ما قلت ، أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شئ قدير . من قالها : كتب الله له ألف حسنة . وحط عنه ألف سيئة . وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك . ولم يأت أحد ، بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه .

ومن قال في يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر .

فضائل وأدعية

وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .
فقوله « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، في مواضع . مثل حديث كفارة المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها في مجلس ، إن كان مجلس لفظ ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفي حديث أيضاً « إن هذا يقال عقب الوضوء » .
وفي الحديث الصحيح في مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفي حديث آخر أنه يقول « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي . إنك خير الغافرين » « اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي فارحمي . فأنت خير الراحمين » « لا إله

إلا أنت . سبحانهك وبحمدك . رب إني ظلمت نفسي ، فتب عليّ . إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله . فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو . والاستغفار : من ذنوب النفس ، التي منها تأتي السيئات .

وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد ، والاستغفار في غير موضع . كقوله (٤٧ : ١٩) فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفي قوله (١١ : ٢) أن لا تعبدوا إلا الله . إني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) وفي قوله (٤١ : ٦) قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد . فاستقيموا إليه ، واستغفروه) .

وفي حديث رواه ابن أبي عاصم وغيره « يقول الشيطان : أهلك الناس بالذنوب ، وأهلكوني بالاستغفار ؛ وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثّنتُ فيهم الأهواء . فهم يذنبون ولا يستغفرون . لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .
ما تقتضيه « لا إله إلا الله »

و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل . والإخلاص : الشكر . فهي أفضل الكلام . وهي أعلى شعب الإيمان . كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إمالة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

ف « لا إله إلا الله » هي قطب رحي الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله .

والكتب المنزلة : مجموعة في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) وهي ١٩ - مجموعة

معنى « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي من معنى « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » في معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر » من معناها . لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصل

وقد ظن بعض المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام ، على سبيل الإنكار . ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يبين معنى الآية . فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أى بذنوبه . وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه . ومن ذكر ذلك : أبو بكر بن قزّك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهزاً عدد الرمل والحصى والتراب
قلت : وإضمار الاستفهام — إذا دل عليه الكلام — لا يقتضى جواز إضماره
في الخبر المخصوص من غير دلالة . فإن هذا يناقض المقصود . ويستلزم أن كل
من أراد أن ينفي ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يُقدّر في خبره استفهاماً .
ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم في قول إبراهيم عليه السلام
« ٦ : ٧٦ هذا ربى » أهذا ربى ؟ .

قال ابن النبارى : هذا القول شاذ . لأن حرف الاستفهام لا يضم إذا
كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله (٢١ : ٣٤ أفان ميت فهم الخالدون ؟) .
وهذا لاحجة فيه . لأنه قد تقدم الاستفهام في أول الجملة ، في الجملة الشرطية
(٢١ : ٣٤ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فلم يحتج إلى ذكره ثانية . بل ذكره

يفسد الكلام . ومثله قوله (٣ : ١٤٤ أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟)
وقوله (٢ : ٨٧ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟) وقوله
(٢ : ١٠٠ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟) وهذا من فصيح الكلام
وبليغه . واستشهدوا بقوله :

لعمر ك لا أدري ، وإن كنت دارياً بسبع رمين الحجر ، أم بثمان ؟
وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً ؟
تقديره : أ كذبتك عينك ؟ .

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما يُعَد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل
على الألف المحذوفة في البيت الأول . وأما الثاني : فإن كانت « أم » هي المتصلة ،
فكذلك . وإن كانت هي المنفصلة . فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها في وجود السيئات . وليست سبباً
فيها . بل قد يقولون : إن المعاصي علامة محضة على العقوبة ، لا قترانها بها . لأنها
سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

والقرآن يبين في غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب .
فقال هنا (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال لهم في شأن أحد (٣ : ١٦٥)
أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أئى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم)
وقال تعالى (٤٢ : ٣٠) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن
كثير) وقال تعالى في سورة الشورى أيضاً (٤٢ : ٤٨) وإن تصبهم سيئة بما قدمت
أيديهم فإن الإنسان كفور) وقال تعالى (١٠ : ٥٠) قل أرأيتم إن أتاكم عذابه
بياتاً أو نهراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟) وقال تعالى (٣٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩)
وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين) وقال تعالى
(٢٨ : ٥٩) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم

آياتنا . وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) وقال تعالى (٣٠ : ٤١) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليزيقهم بعض الذي عملوا . لهم يرجعون) وقال تعالى (٣٢ : ٢١) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لهم يرجعون) وقال تعالى (٤٢ : ٣٤) أو يؤيقنهم بما كسبوا . ويعفو عن كثير) وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب (٦٨ : ٣٣) ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (٣ : ١١٧) مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح في صير أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله . ولكن أنفسهم يظلمون) وقال تعالى عن أهل سبأ (٣٤ : ١٦ ، ١٧) فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العريم - إلى قوله - ذلك جزيناهم بما كفروا . وهل نجازي إلا الكفور ؟) وقال تعالى (١١ : ١٠٢) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذته أليم شديد) وقال تعالى (١٧ : ١٥) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)

وفي الحديث الصحيح الإلهي « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك : فلا يلومن إلا نفسه » .

وفي سيد الاستغفار « أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي » وقال تعالى (٥٢ : ٤٧) وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبد الله ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم .

ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .